الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة
كلية الأداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

UNIVERSITE DE 8 MAI 1945- GUELMA
Faculté des lettres des langues
Département dz langue et littérature Arabe

الرقم .....

N°.....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة

الماستر

(تخصص أدب جزائري)

تجليات التصوف في رحلة ابن قنفد القسنطيني "أنس الفقيروعز الحقير"

مقدمة من قبل: خديجة سلاطنية

تاريخ المناقشة:25 جوان 2018

الإسم و اللقب	الرتبة	الصفة
يزيد مغمولي	أستاذ مساعد أ	رئيسا
ابراهيم كربوش	أستاذ مساعد أ	مشرف ومقررا
العايش سعدوني	أستاذ محاضر ب	ممتحنا

السنة الجامعية: 2017-2018م

شكر وعرفان

الشكـــــر للـــــه الذي وفقـــــــنا وأعانـــنا، والحمد للـــــه الذي يسر لنا أمـــــــورنا، سبحانـــــــه نعـــم المرشد والمعين.

إلى أستـــــــاذنا ابراهيم كربوش جزيل الشكـــــــر والامتنان على حســـــن التوجيـــــــه والثقـــــــة التي منحنا اياها

إهداء

اهدي هذا العمل المتواضع إلى :

- الشخص الذي .....تعجز كل كلمات العالم أن تعبر عن حبي وامتناني لـه،
- إلى أبي الغالي وسندي العالي رحمه الله و جعله من أهل الجنة " عبد الوهاب "
- إلى أمي التي زودتني بالحنان و المحبة و العطف " العارم".
- أقول لهم أنتم من م وهبني الحياة و الأمل و النشأة على عشق الاطلاع و المعرفة

و الى اخوتي و أسرتي جميعا.

- الى صديقاتي ثم الى كل من علمني حرفا و أصبح سنا برقه يضيء الطريق أمامي.

وشكرا

مقـــــــــــــدمة

مقدمة:

يعد أدب الرّحلة لونا من الألوان الأدبية الذي ينقل فيه الرّحالة العديد من العناصر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية وغيرها، وذلك من خلال ما يصادفه من مظاهر وعادات وتقاليد ومعالم أثرية لتلك المنطقة التي زارها، فأدب الرّحلة الجزائري كغيره لم يكن بمنأى عن ذلك، حيث ظهر العديد من الرّحالة الجزائريين اختلفت مساعي رحلاتهم من رحّالة لآخر فمنهم من جاءت رحلته استطلاعية، استكشافية، ومنهم من كانت حجازية، علمية، سياحية، زيارية صوفية كالرِّحلة التي بصدد دراستها الموسومة بـ: "انس الفقير وعز الحقير" للرّحالة بن قنفذ القسنطيني، حيث كان همه هو لقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزّهاد والمنقطعين وأصحاب الكرامات، كما صور خلالها الحياة الصوفية والأجواء الدينية التي سادت المغرب الأقصى خلال القرن الثامن للهجري، وقد انصب اهتمامنا بدراسة مظاهر التصّوف في الرّحلة ، فحاولنا من خلالها الإجابة عن بعض التساؤلات التي شغلتنا منها :ماهي مظاهر التصوف في الرحلة؟ وفيما تمثلت؟ وما مظاهره و خصائصه ؟

أما عن سبب اختياري للموضوع ميلي ورغبتي في هذ النوع من الأدب حيث كان اهتمامي به منذ سنوات سابقة.

وجاء بحثنا على شاكلة مدخل و فصلين :الأول نظري والثاني تطبيقي ومقدمة وخاتمة.

تناولنا في المدخل: مفهوم الرّحلة والتصّوف كذلك تعريف الرحالة ومضمون الرحلة.

وتطرقنا في الفصل النظري إلى : نشأة أدب الرحلة بالجزائر ونشأة التصّوف في بها و التصّوف في عصر الرّحالة كما قمنا بتعريف كل من الكرّامة والشيخ والمريد وآداب المريد مع الشيخه ، كذلك أخذنا لمحة عن زّيارة الأضرحة والمقابر.

أما الفصل التطبيقي فاحتوى على الكرامة الصوفية في الرّحلة، كذلك ترجمة لشيوخ وذكر الأضرحة والقبور وتطرقنا إلى أهم الطوائف في الرّحلة.

واعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي التحليلي وهذا ما تقتضيه مادة البحث.

وأثناء إنجازنا البحث اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع منها:

أنس الفقير وعز الحقير لأبي العبّاس أحمد الخطيب، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف ابن يحي التدلي، الزّوايا والأصّالة الجزائرية بين التاريخ والواقع لعبد العزيز راس مال.

وخلال إنجازنا لهذا البحث واجهتنا بعض الصعوبات منها :

قلّة المصادر والمراجع والدّراسات لاسيما أدب الرّحلة الجزائري، وصعوبة اختيار الموضوع.

وذيلنا البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدّراسة وفي الأخير نشكر الأستاذ الكريم «كربوش إبراهيم» على صبره الكبير معنا وكل الملاحظات والتوجيهات السدّيدة التي قدّمها لنا ونشكر اللّجنة المناقشة التي سوف نستفيد من ملاحظاتها لتقويم البحث، ولا ننسى جامعة 08 ماي 1945 قالمة وما اسدته لنا من خدمات ساعدتنا في انجاز هذ البحث.

ختاما نرجو أن نكون قد ألممنا إلى حد ما بجوانب الموضوع ونرجو التوفيق في ذلك.

مدخـــــــــــل

1-مفهوم التصوف.

2- مفهوم الرحلة.

3- تعريف الرّحالة.

4-مضمون الرحلة.

1- مفهوم التصوف:

أ- لغةً:

لم تَعرّف كلمة التصوف في لغتنا اشتقاقًا واحدًا يتفق عليه، إذْ تعددت واختلفت، «فمنهم من قال إنها تحمل دلالة الصوف، وإذا أضفنا إليها ياء النسبة (صوفي) مفرد جمعه صوفية ومن الدلالات التي تحملها أيضًا مادة صوف نذكر: الصوف للضأن وما أشبه»[1]، ومن ذلك نسبة الى الصوف.

وهذا ماذهب اليه الجوهري في قوله: «الصوف للشاة، والصوفة أخَص مِنْهُ.

وبن سيده: الصوف للغنم كالشَّعْر للمَعِز والوبر للإبل، والجمع أصواف، وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية بالطائفة باسم الجميع»[2] ، إذن فدلالة معاني كلمة صوف تحمل معنى الصوف لأنّه غالبًا لباس الزهاد من المتقدمين.

كما نجد معنى كلمة "الصوف": « الصوف للشاة والصوفة أخف منه»[33].

وهذا ما جاء في معجم الصحاح، ويُقال «(صوف): النباتُ، ظهر عليه ما يشبه الصُّوف، وفلانًا جعلته من الصُوفية، (تَصَوَّف) فلان: صار من الصُّوفية، (التصُّوفُ): طريقة سلوكية قوامها التّقشف والتحلي بالفضائل، لتَزْكو النّفس وتسمو الروح، و(علم التصوف): مجموعة من المبادئ التي يعتمدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم، والصوفي: من يتبع طريقة التصوف والعارف بالتصوف، وأشهر الآراء في تسميته أنّه سمي ذلك لأنّه يفضل لبس الصوف تقشفًا»[4].

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، (د ط)، مج4، ج27، مادة "صوف"، ص25،27.

[2] المرجع نفسه، ص25،27.

[3] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (ط1)، 1981م، ص 345.

تستأثر مادة "صوف" في المعاجم اللّغوية بنصيب كبير من الشرح والتفاصيل في معانيها واستخداماتها الكثيرة عند العرب، فقد اتخذت معنى الصوف أي لبس الصوف لأنّ المتصوفة عادة لباسهم الصوف الخشن، كما أخذت معنى آخر وهو الأقرب على الأرجح وهو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق. فتعددت واختلفت التعاريف فاقتصرنا على ذكر القليل فقط.

ب- اصطلاحًا:

وبالنظر إلى التعريفات التي وضعت للتصوف نجدها لا تُعدُّ ولا تُحصى لذلك سوف نكتفي بذكر أهمها منها: «التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه، ونجده في موضع آخر بمعنى: القيام بواجبات الشرعية من صلاة وصوم وحج ومعرفة الله وشكره وحمده والتضرع إليه في كل وقت»[1]،ارتبط التصوف هنا بتقرب الي اللّه والعكوف عن العبادات.

وفي تعريف آخر: «سميت الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفت لله معاملته، فضفت له من الله عزّ وجل كرامته»[2].

وقيل أيضًا سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عزّ وجل بارتفاع همهم إليه، وإقبالهم عليه ووقوفهم بصائرهم بين يديه.

وقيل أيضًا يسمى صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأمّا عن نسبهم إلى «الصفة والصوف فإنّه عبّر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخذان، وساحوا في البلاد وأجاعوا

(1) نور الهدى الكتاني: الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، (د ط)، (د ت)، ص 9.

(2) إحسان إلهي ظهير: التصوف، المنشأ والمصادر، دار ابن الحزم، القاهرة، (ط1)، 2008م، ص 36.

الأكباد وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلاّ ما تجوز تركه، من ستر عورة وسد جوعه»[1].

أمّا ابن خلدون فعرّف التصوف بأنّه «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزّهد فيها، مما يقبل عليه الجمهور من لذة، ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»[2].

كما عرّفه في موضع آخر: «بأنّه محاسبة النفس على الأفعال والتروك» [3].

فالتصوف إذن عبادة ومجاهدة للنفس ومحاولة لإدراك الحقيقة.

ومما سبق يمكن القول أنّ جميع المعاني كلّها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عن شهواتها وصدق التوبة إلى الله بما يرضاه وصدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى.

2- مفهوم الرّحلة:

أ- لغةً:

وردت لفظة «رَحَل» في العديد من المعاجم اللّغوية، حيث أخذت معنى السير والتِّرحال في معجم لسان العرب لابن منظور في قوله: «الرّحلة تعني: السيْر، التِّرحال، الجهة التي يقصدها الرجل، وقيل: السفرة الواحدة»[4].

«وبعير ذو رُحْلَةٍ ورِحْلَة إذا كان قويًا على أن يَرْحل وارتحل البعير رِحْلَةً، سار فمَضَى، ثم جَرَ ذلك في المنطق حتى قيل ارْتَحَلَ القوم عن المكان ارتحالاً ورَحل عن المكان يَرْحَلُ وهو راحِل من قوم رُحَّل: كقول الشاعر:

رحلت من أقصى بلاد الرُّحَّل

من قُلَل الشّعْر، فجنبي مَوْحَلَ.

---

(1) إحسان إلهي ظهير: التصوف، المنشأ والمصادر، ص 37.

(2) عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ العلامة ابن خلدون، مج1، ط2، بيروت، 1961م، ص 683.

(3) المرجع نفسه، ص 24.

(4) ابن منظور: لسان العرب، مج3، ج11، مادة "رحل"، ص 1610،1611.

والرَحيلُ: القول على الارتحال والسير، والترّحُّل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة، والرُّحْلَةُ: اسم ارتحال للمسير، يقال: دنت رحلتنا، ورَحَل فلان وارْتَحَل وتَرَحَّل والرُحلة بالضم: القوة والجودة أيضا، ويقال ارتحلت الإبل: سمنت بعد الهُزال، فأطاقت الرحلة، وارْتَحَل فلان إذا عاونته على رِحْلته».[1]

يتجلى مما سبق ذكره أن لفظة "رحل" رغم تعدد معانيها واستعمالاتها إلا أنها تصب في معنى واحد وهو التِرْحال والارتحال، أي الانتقال من مكان الي أخر.

ومنها (رحل) عن المكان رَحْلا، ورَحيلا، وتِرْحالا، ورِحْلة: سار ومضى والبعير رَحْلا، ورِحْلة: جعل عليه الرَّحْل فهو مرحول، ارْحَل، فلان: كثرت رواحِلُه، فهو مُرْحِل، الرِّحلة: الارتحال ج رِحَل وفي التنزيل العزيز: [رحلة الشتاء والصّيف][2]، كتاب يصف فيه الرّحالة ما رأى وبعير ذو رحلة: ذو قوة على السير»[3] .

وإذا حاولنا الوقوف على الدلالة الاشتقاقية لمادة «رحل» وفقا لما استقر عليه «ابن فارس» فإننا نلفيها على الدلالة الاشتقاقية لمادة «رحل» أصل واحد يدل على مضي في سفر «يقال رحل يرحل ، والرحلة وجمل رحيل: ذو رُحلة بضم الراء وكسرها اذا كان قويا على الرِّحلة، والرحلة: الارتحال، والراحِلة المركب من الإبل ذكر أكان أو أنثى ومعنى الرحلة إذا أظغنه من مكانه، ومعنى الرِحلة والرُحلة: القوة على السير»[4] .

لقد حظيت هذه الألفاظ بمقومات دلالية مكنتها من تجاوز الحقل الدلالي الأصلي إلى حقل دلالي آخر، ومرد ذلك هو الحضور المادي والذي نعني به ذَكَر الإبل، ويتبين لنا مدى حضوره في مخيلة الإنسان العربي بهيأته ورمزياته سواء كان

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، مج3، ج22، مادة "سفر"، ص 2024.

[2] سورة قريش، اية 02، ص 602.

[3] معجم الوسيط: ص 334، 335.

[4] أبو الحسن بن فارس زكريا: معجم مقاييس اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، مادة "رحل"، ص 497.

في الواقع أو في المخيلة وربما ذلك راجع إلى التاريخ المثقل بالمعاني الرمزية، كما ذكرنا سابقاً أن هذه المفردات في جل معانيها المختلفة إلا أنها تصب في معنى واحد ألا وهو السير والانتقال والوجهة والمضي إلي المقصد المراد السفر والارتحال إليه بغية مقاصد مختلفة المشارب والغايات.

ب- اصطلاحًا:

تعدّ الرحلة مجالاً رحبًا ينطوي على علاقات إنسانية ضاربة في جذور التاريخ السحيق لهذا الكون فمنذ المحاولات الأولى للكائن البشري في السيطرة على الطبيعة، وهي محاولاتٍ صادقةٍ نرى فيها صور صادقة وصفحات من جهاده، إذ ينفض عنه ثياب الدعة ويرتدي ثوب الارتحال والتجوال والبحث.

ومن ذلك فالرحلة في الاصطلاح: «عبارة عن منابع غنية بمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشرية لما فيها من صور وأخبار ومغامرات ومعارف وعلوم إنها خزائن تحفل بالمادة النثرية، لا في مجال الجغرافيا أو التاريخ وحسب، بل تُلمُ بالحضارة وتمثل تجربة تعكس صورة الإنسان عبر العصور»[1]، فالرحلة مصدر الحضارة ودستور الأمم وماضيها الذي يعبر عنها.

«فالرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة كل أحداث سفره وما شاهده وعاشه، مازجًا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم وإنجاز الرحلة «كتابتها» يتطلب أنْ يكون الرحّالة بهذا المعنى أي بما هي كتابة وخطاب حال اشتغال واهتمام الباحثين بها، ولابد لكل رحلة مكتوبة من سفر حقيقي وفعلي»[2]، فالرحلة صورة صادقة لما عاشه الرحالة أثناء رحلته، حيث جسد فيها مشاعره وأحاسيسه بصدق وتجاربه التي خاضها أثناء رحلته.

---

(1) نوال عبد الرحمن شوابكة: آداب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن تاسع عشر، دار الممون للنشر والتوزيع، الأردن، (ط1)، 2008م، ص 17.

(2) سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، 2006م، ص 200.

عرّفها الإمام «الغزالي»: «بأنها نوع مخالطة من زيادة تعب ومشقة جاعلاً الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد والتعب الناتجان من الانتقال على الرغم من أنّه لم يذكر ذلك لأنّه لابد أنْ تكون الرحلة انتقال وحركة حتى تكون هناك مخالطة»[1]، ومنه فالرحلة نِتاج اختلاط الرَّحالة بالآخر ونتيجة لتلك المغامرات التي عاشها اثناء رحلته.

إنّ تقصي هذه المفاهيم والتعريفات سواء أكانت لغوية أو اصطلاحية يتبين لنا أنّ مفهوم الرحلة يُقصد به الحركة والانتقال من مكان إلى آخر لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة لأنّ الرحلة لا تكون من دون غرض معيّن، ولذلك اختلفت وتنوعت مشارب الرحالة.

3- تعريف بصاحب الرحلة «الشهير بابن القنفذ القسنطيني»:

هو العلامة والرحالة القاضي أبو العباس أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب القنسطيني المشهور بابن القنفذ.

« وُلد سنة 740هـ في عائلة علم وصلاح بمدينة قسنطينة من بلاد الجزائر، ووالده وجدّه من خطبائها، حيث كان جده لأمه يوسف الملاّري المتوفي سنة 764هـ، كان من مشاهير الصوفية في قسنطينة، حيث كَفَله جدّه فأثر فيه بعمق، وقد بدأ دراسته على والده وعلى جدّه لأمه الذي حفظ على يده القرآن الكريم، كما لقّنه علوم العربية من نحو وصرف وأدب وحديث»، كما أخذ أيضًا عن العديد من الشيوخ[1] الذين التقى بهم وزارهم حيث نهل منهم العلوم والمعارف، ولما أنهى المرحلتين من تعلمه توجه إلى تلمسان عاصمة بني زيان، حاضرة العلم والعلماء آنذاك والتقى بعلمائها وأخذ عن شيوخها التفسير والحديث الشريف والفقه والأدب والنحو وفي هذه

(1) أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 1980م، ص 273.

(2) المصدر نفسه، من المقدمة.

المدينة وقف عن زاوية شيخها أبي مدين شعيب بالعُباد وتبرك بضّريحه»[1] ، ومن ثمة توجه إلى فاس للأخذ عن علماء جامعتها الشهيرة، وكان سنه آنذاك حوالي التاسعة عشرة، وقد ظهرت نجابته في كل العلوم التي درسها قبل سفره والتي أهلته للاستفادة من الأساتذة الكبار الذين تتلمذ على يدهم بفاس، وأقام مدّة طويلة تقرب ثماني عشرة سنة، طاف خلالها ربوع المغرب الأقصى وجاب ثناياه، فالتقى بعلماء ذلك العصر والشيوخ المتصوفة وأخذ عنهم العلوم والحديث والتفسير والتراجم والأدب»[2] كما اتصل بالأولياء والصالحين الأحياء وزيارة أضرحة المشاهير منهم الذين طبعوا الفكر الديني المغربي.

وهكذا قضى ابن قنفذ بالمغرب قريبًا من عشرين سنة انقطع في أولها إلى أخذ العلم من ينابيعه إلى أنْ صار من العلماء المبرزين واستندت إليه وظيفة القضاء وعمره آنذاك لا يناهز تسعا وعشرين سنة أي عشر سنوات بعد وصلوه للمغرب، « وفي سنة 776هـ قرر الرجوع إلى بلدته قسنطينة لكنه لم يلبث إلاّ أيامًا قليلة ليسافر إلى تونس لينهل من علمائها وفقهائها، ثم عاد إلى قسنطينة واستقر بها، وتولى عدّة خطط كالخطبة والإفتاء والقضاء، وعطف على نشر العلم بالتدريس والتأليف حتى وفاته 850هـ»[3] .

كما خلف مجموعة من الكتب القيّمة تزيد عن ثلاثين مصنفًا في شتى العلوم نذكر منها:

1- الوفيات

2- شرف الطالب في أسنى المطالب.

---

[1] أحلام عثامنية: النزوع الديني في أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة "ابن بطوطة وابن قنفذ نموذجًا"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب القديم، جامعة 8 ماي 1945، قالمة 2011-2012م، ص 26، 27.

[2] المدونة، من المقدمة.

[3] المصدر نفسه من المقدمة.

3- طبقات علماء قسنطينة.

4- تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد.

5- تسهيل المطالب في تعديل الكواكب.

6- شرح الأرجوزة التلمسانية في الفرائض.

7- تحصيل المناقب وتكميل المآرب.

1- أنس الفقير وعزّ الحقير[1]، وهي رحلة تقص تنقلاته بالمغرب الأقصى بغية تحصيل العلم والالتقاء برجال التصوف وزيارة أضرحة الصالحين.

4-<u>مضمون الرحلة:</u>

من خلال دراستنا لرحلة ابن قنفذ القسنطيني الموسومة بـ: «انس الفقير وعز الحقير» والتي جاءت في شكل كتاب، حيث كانت وجهته من مدينة قسنطينة إلى المغرب الأقصى جاب خلالها ربوع المغرب بحثا وسعيا وراء رجال العلم والأوليّاء الصالحين وأصحاب الكرّامات الذين ذاع صيتهم في الآفاق في هذا المجال حيث دامت رحلته هذه ثمانية عشرة سنة، فجاءت رحلته ترّجمة لشيوخ المتصّوفة المغاربة وعلى رأسها الشيخ ابو مدين شعيب حيث تحدث مطولا عن هذا الشيخ منذ كان صغيراً إلى أن أصبح قطب زّمانه وشيخ مشايخ الإسلام إلى غاية وفاته والتي كانت بتلمسان، وأهم ما اشتهر به من كرّامات وفراسات وكل عجيب وغريب ظهر علي يديه، كما تطرق إلى أهم الشيوخ الذين تتلمذ على ايديهم واصحابه وتلاميذه ....وتحدث أيضا عن الشيوخ الذين التقى بهم أثناء رحلته وسمع عنهم وأخذ واستفاد من علومهم وتبرك بهم، حيث ذكر أخبارهم و مجاهداتهم وعباداتهم وما ظهر على أيديهم من فوارق وعجائب وكل غريب حصل معهم، كما تقصى عن الطُرُق الصّوفية التي ينتسبون إليها وطوائفهم، حيث توصل خلالها إلى أنّ الطوائف الصّوفية بالمغرب متعدّدة تبعا لتعدد

(1) المدونة، من المقدمة.

الشيوخ والأوراد وكل طائفة تنسب لأشياخها فمنهم :الشّعيبيون نسبة إلى ابي شعيب أزمور والصنهاجيون من طائفة بني أمغار والمجريون نسبة إلى ابن محمد صالح والحجاج طائفة تقتصر على من حج بيت الله الحرام و الحاحيون نسبة إلى ابن زكرّيا الحّاحي والغماتيون نسبة إلى ابن زيد عبد الرحمان الهزميري، فنجد الرّحالة وقف عليها أكثر أثناء الاجتماع الذي انعقد بناحية دكالة حيث حضره المتصّوفة جميعهم شيخًا كان أو مريدا كما قصده من كل حدب وصوب أصحاب العلّل المزّمنة والأمراض المستعصية.

كما أشار خلال رحلته هذه إلى الكثير من القبور والأضرحة التي زارها ووقف عندها مراراً وتكراراً فنجده ما أَنْ حَلَّ ببلد إلا وناشد أضرحة الوليّاء و الصالحين في تلك المنطقة من أجل التبرّك بهم والتماس دعائهم ونفع بهم.

إلى جانب ذلك لم يغفل الرّحالة عن وصف المسّالك والطريق وبعض الأماكن والمدن كوصفه لجبل درن حيث قال فيه أنه جبل عظيم لا يوجد له مثيل على الأرض سواء في الارتفاع والمياه والخصب ووصفه بعجائب الدنيا، ولم ينسى وصف الشيوخ وخاصة لبّاسهم ومأكلهم ومشربهم وأماكن إقامتهم ومجالسهم، وكل ذلك مبني على ما شاهده بنفسه نتيجة اتصالاته الشخصية برجال التصّوف والزّهاد والعلماء والأوليّاء والصّالحين.

الفصـــل الأول

1- نشأة أدب الرّحلة بالجزائر.

2- التصوف في الجزائر و تطوره.

3- التصوف في عصر الرحالة.

4- مفهوم الكرامة.

5- مفهوم الشيخ وسيماته.

6- مفهوم المريد وآدابه مع شيخه.

7- لمحة عن زيارة الأضرحة و المقابر.

1- نشأة أدب الرحلة في الجزائر:

تعدّ الرحلة الجزائرية امتداداً طبيعيًا لرحلات العربية كون الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، فقد أسهم الجزائريون بمجهودات كثيفة في هذا المجال ومارس الكتّاب هذا الفن ولاسيما تلك التي كان يُقصد منها لقاء الشيوخ ورجال الصوفية أو السفر لأداء فريضة الحج، ومنها ما كانت سياحية وأخرى استكشافية استطلاعية... وهذا ما أشار إليه سعد الله في قوله: «وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك تكون رحلات حجازية، وبعضها لطلب العلم وبذلك تكون علمية»[1]، فكان هدفهم زيارة البقاع المقدسة وأداء مناسك الحج، وبعضهم سعي لطلب العلم، ورغم ذلك إلاّ هناك من أكد على أنّ أدب الرحلة الجزائري ضئيل الكم ضعيف الإنتاج مقارنة بما أنتجه أشقاؤنا في البلدان الأخرى، ومن ذلك قول أبي القاسم سعد الله في ذلك: «لكن الجزائريين بالقياس إلى كُتَّاب المغاربة كانوا قليلي الإنتاج، ولعل ذلك راجع إلى أنّ الكثير من العلماء الذين توزعوا في العالم الإسلامي لم يعودوا إلى الجزائر ليدونوا ملاحظاتهم على مواطنهم»[2]، فرغم إسهاماتهم التي لا تنكر إلاّ أنّ هذا لا يعني غياب الرحالة الجزائريين، وإنما يعود إلى كون أغلب الرحالة لم يسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم بسبب غياب حس التدوين وبقاء الكثير منهم في البقاع المقدسة.

ولعل أقدم الرحلات رحلة التوجاني التلمساني والتي تُنسب إلى ما قبل العهد العثماني، وهذا ما أقرّه أبو القاسم سعد الله، إذْ يقول عنه بأنّه مفخرة الجزائر، وأنّه مفخرة تلمسان ليُؤكد على نسبه ربما، «كما أنّ أحمد المقري قد ساق في إزهار الرياض رحلة لجده محمد المقري التلمساني تنسب إلى أحمد القسنطيني ابن قنفذ، وتعتبر في حكم الضياع والأرجح موجودة في تونس»[3].

---

(1) أبي القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار العرب الإسلامي، (ط1)، 1998م، ص 381.

(2) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 382.

(3) المرجع نفسه، ص382.

ويبدوا الجزائريون لم يحفلوا كثيرًا بالرحلات خلال هذا العهد، أمّا في العهد العثماني فقد شهد أدب الرحلة ازدهارًا كبيرًا لم يسبق للجزائر أن عرفته في العصور التي مضت، حيث ظهر التّدوين وسجلت الكثير من الرحلات، ويمكن تقسيم الرحلات خلال عهد العثماني إلى قسمين:

أ- رحلات علميّة:

يعدّ هذا النوع من أهمها وأقدمها، هدفه طلب العلم والأخذ عن العلماء والاستفادة منهم والانتفاع بعلومهم، كما يقوم هذا الصنف على وصف الحياة العلمية أثناء رحلاتهم، وعلى سبيل ذلك: «"رحلة عاشور بن موسى القسنطيني" والتي دامت نحو عشرين سنة، زار خلالها الكثير من البلدان من تلمسان إلى المغرب الأقصى، كما تحدث عن غريب البلاد وأهلها، وذكر غرائب المسموعات»[1].

كما أنّ رحلة "ابن حمادوش" تندرج ضمن الرحلات العلمية لأنّ غاية الرحالة طلب العلم والتجارة من الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس ثم عاد إلى الجزائر، كما نجده تطرق إلى جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب أثناء رحلته هذه الموسومة بعنوان " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل".

إلى جانب الرحلتين سالفتي الذكر، نجد رحلة "محمد الزجاي" من أبرز علماء تلمسان صاحب "الرحلة الفاسية" تعدّ ضمن الرحلات العلمية.

ب- الرّحلة الحجازية:

فمعظم الرّحلات في العهد العثماني كانت رحلات حجازية، حيث توجه الرّحالة إلى بلاد الحجاز عامة وبلاد الحرمين خاصة، كون الرّحلة الجزائرية شهدت تبكيرًا ملحوظًا في مسارها نحو الأقطار العربية لزيارة البقاع المقدسة وأداء مناسك الحج، وتنقسم هذه الأخيرة إلى قسمين: شعرية ونثرية، فالجزائريين كغيرهم من الرحالة لم

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 383.

يهتموا كثيرًا بالرّحلة الشّعرية لكن هناك من أولاها عنايةً واهتماماً ودّون رحلته شعرًا منهم الرّحالة "عبد الله ابن عمر البسكري"، حيث يقول في مطلع قصيدته:

دَارُ الحبِيبُ أَحَقُّ أنْ تَهوَاها * ونَحْنُ مِنْ طَرَبَ اِلَى ذِكْرَهَا»[1]

حيث كان الرّحالة يبثون انطباعاتهم المتأججة وأحاسيسهم الفياضة وعواطفهم الجياشة بواسطة الشعر أثناء حلولهم بتلك الأرض الطاهرة، كما وصفوها، ورؤية أهلها والتّبرك بترابها، فكان الشّعر ملاذهم الوحيد للتعبير عن مشاعرهم إزاء ذلك، وهذا ما عبّر عنه سعد الله في قوله: «إنّ توجه الجزائريين إلى الحجاز كالعادة نتيجة توق روحي نحو الحرمين وزيارة البقاع التي وطأتها أقدام الرسول صلوات الله عليه وسلم وصحابته»[2].

ومن ذلك قصيدة "محمد بن مسايب التّلمساني"، تحكي هذه الأخيرة رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة، عبر مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها، فجاءت رحلته شعرية، حيث يقول:

يالورشان أقصد طيبة وسلم على الساكن فيها[3]

أمّا عن الرحلات النثرية فذهب بعض الدّارسون إلى أنّ الموطن الطبيعي للرحلة هو النثر، وهذا ما أكده "حسين ناصر" في قوله: «إذا تركنا الشعر إلى النثر أحسسنا أننا انتقلنا إلى مجال فسيح لا حدود له لأنّ النثر هو الموطن الطبيعي للرحلة»[4].

فمن ذلك نجد رحلة "الورثلاني" تعدّ رحلة نثرية المعنونة بـ: " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

---

(1) أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، ص387.

(2) المرجع نفسه، ص 389.

(3) أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص388.

(4) حسين ناصر: أدب الرّحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العلمية للنشر والتوزيع، (ط1)، 1991م، ص 130.

وأول رحلة نثرية حجازية مذكورة في المصادر "رحلة البوني" المسماة " الروضة الشهية في الرحلة الحجازية"، مؤلفها "أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني"، لكن رحلته تعتبر ضائعة اليوم.

كما نجد رحلة "ابن راس المعسكري" يعدّ فيها تنقلاته وشيوخه والمسائل العلمية التي عرضت له المعنونة بـ " فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي".

والرّحلة عمومًا من أحسن ما أنتجه القرن الثامن عشر للميلاد ليس لمادتها الجغرافية والتاريخية فحسب، بل لما انعكس فيها من أوضاع مختلفة في الوطن العربي، والجزائري اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية ودينية.

أمّا بالنسبة للقرن التاسع عشر للميلاد شهد نماذج مختلفة للرحلات، حيث تعددت مقاصدها وتنوعت مساراتها أي خلال العهد الاستعماري، كما اختلفت أهدافها الفكرية والسياسية والاجتماعية، «فظهرت رحلتان جزائريتين هما: "رحلة سليمان بن صيام" و" أحمد ولد قادو" والمعنونتان بـ "الرحلة الصيامية والرحلة القادية في تبصير أهل البادية"، كانت وجهة الرحالة إلى باريس وهدفهما خادم للأغراض الاستعمارية، حيث سعى المستعمر من خلالها إلى تحسين صورته وتحقيق أغراضه، كما نال تمجيداً من قِبل الرّحالة اللذين انبهرا بالحضارة والتمدن في فرنسا»[1].

أمّا عن الرحلات التي ظهرت خلال القرن العشرين، فقد اختلفت عما سبقوها من حيث الهدف والاتجاه، كما ازدادت عددًا، ومن أشهر الرحالة في تلك الفترة نذكر "الطيب المهاجي" و"البشير الإبراهيمي" و"محمد الغسيري" و"عثمان سعدي" و"أبي القاسم سعد الله" فهؤلاء اختلفت اهتماماتهم بين الثقافة والدين والسياسة والفكر.

ولكن الغاية من هذه الرحلات لم تعد ما كانت عليه سابقًا من وصف الأماكن والمسالك والبلدان ونقل العلوم والثقافات وسلوكات الأمم الأخرى، بل غدت ضرباً من

(1) سميرة أنساعد: الرحلة إلي المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في نشأة وتطور والبنية، شركة دار الهدى للطباعة والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، (د ط)،2009م، ص47.

النضال السياسي والاجتماعي والثقافي والسعي إلى تغيير الواقع والتعريف بالقضية الجزائرية في المحافل الدولية، ومن الرحلات التي سعت إلى هذا رحلات "البشير الإبراهيمي" إلى الأقطار الإسلامية ورحلات "مالك بن نبي"، كما اتجه البعض إلى المشرق العربي وإلى أوروبا والاتحاد السوفياتي والصين، وكان الهدف منها أيضًا خدمة الشعب وتقرير مصيره، وإذا كانت الرحلات السابقة اتجهت أكثر إلى خارج الوطن فإنّ رحلات العصر الحديث اتجهت أكثر داخل الوطن وخاصة تلك التي قام بها رجال الإصلاح لهدف الفكرة الإصلاحية ونشرها بين الجماهير ودعوتها إلى اليقظة والنهوض، كما كانت تصور مدى تعلق الشعب بالحرية ، كرحلة "ابن باديس" والتي كانت داخل القطر الجزائري وهدفها تذكير الشعب بدينهم وحثّهم على الرجوع إلى الله.

2- نشأة التصوف وتطوره في الجزائر :

التصوف ظاهرة تعد نتاج عوامل دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية، تعود بجذورها إلى القرن الثالث للهجرة، حيث عرف المغرب الأوسط ظاهرة التصوف شأنه في ذلك شأن المغرب العربي نظراً للاحتكاك القائم بينهما «حيث شهد المغرب الأوسط بداية القرن الثاني إلى غاية القرن الخامس للهجرة حركة زهدية برزت ملامحها الأولى في سياق الفتوحات الاسلامية لبلاد المغرب حيث استقر بتلمسان الزاهد "وهب بن أمية" أحد كبار التابعين والصلحاء ولما توفي أصبح قبره محل زيارة التلمسانيين الذين اطلقوا على أبواب مدينتهم اسم باب وهب».[1]

وهذا ما أدى إلى ظهور التصوف في الجزائر، «وانطلاقا من القرن الثالث للهجرة برزت حركة الزهد بشكل واضح مثلها "سيد قدور" الذي اتخذ جبل وهران مكان لتعبد فيه ،وهكذا أخذت الحركة الزهدية تتوسع شيء فشيء وتعرف انتشارا واسعا في

[1] الطاهر البونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ/12-13م، شركة دار الهدى للطباعة ونشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر ،(د ط)، ص47.

القرن الرابع والخامس للهجرة، حيث استمدت أفكارها وتأثرت إلى حد كبير بالتطورات الزهدية والصوفية التي عرفتها مدينة القيروان قبل خرابها ».[1]

ومن ذلك نلاحظ أن حركة التصوف في المغرب الأوسط تعود إلى القرن الثالث للهجرة حيث تخمرت عبر قرون وتمخض عنها ميلاد الحركة الصوفية التي بدأت معالمها تتضح في القرن السادس للهجرة «بالنسبة للتصوف السني وبدايات القرن السابع للهجري بالنسبة للتيارات التصوف الفلسفي».[2]

حيث عرف خلالها ازدهارا وتطورا في الحياة الثقافية والفكرية في المغرب الأوسط خلال القرن السادس والسابع للهجرة وظهور تيارات صوفية منها ما هو نابع من السلوكيات اليومية للمتصوفة كل حسب زهده وقناعته في التصوف ومنها ما هو عبارة عن تيارات فكرية صوفية استقت أفكارها من نظريات صوفية فلسفية مشرقية وأندلسية».[3]

---

[1] المرجع نفسه، ص 48 52.

[2] المرجع نفسه، ص 46 .

[3] الطاهر البونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ/12-13م، ص47.

*أحمد التيجاني: هو أبو العباس أحمد ابن محمد ابن مختار ابن أحمد ابن محمد بن سالم التيجاني، ولد بقرية عين ماضي سنة 1150 م، توفي بمدينة فاس عام 1230 م، ودفن بزاويته بالحومة المعروفة بالبليدة من محروسة فاس و هو العرف بالله العالم الرباني المربي الشهير، حفظ القرآن في سن مبكر، طلب العلوم وبرز فيها، شيخ الطريقة التيجانية.

**عالم مسلم مشهور ولد في كيروانة في الهند 1818م و توفي في مكة 1891 م ، هو محمد بن خليل الرحمان الكيرواني الهندي الحنفي ونسبه ينتهي إلى عثمان بن عثمان عند الجد الرابع و الثلاثين، ولد بحي دربارکلان في قرية كيرانا من عاصمة الهند نشأ في كنف أسرة واسعة الثراء و الجاه و العلم و الطب و المناصب العليا .

***سيدي محمد عبد الكريم: هو العارف قطب دائرة الأكوان سيدي الشيخ عبد الكريم القريشي المدني الشهير بالسمان ولد في عراض طيبة المحمدية، عام 1130 هـ، حفظ القرآن في سن مبكر، تبحر في مذهب الإمام الشافعي واشتهر بعلمه الغزير، صار على درب الطريقة الخلوتية، أخذ الطريقة القادرية، توفي سنة 1189هـ ودفن بالبقيع تجاه قبة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وذلك نتيجة هجرة أعداد هائلة منهم إلى حواضر بلدان المشرق والمغرب والأندلس برسم الرحلات العلمية وزيارتهم للبقاع المقدسة لأداء فريضة الحج والاحتكاك بنظرائهم من الصوفية في الخوانق والربط وفي مراكز العلم والمعرفة بغية التحصيل والتعمق، وهذا ما أدى إلى ظهور العديد من التيارات الصوفية المختلفة من حيث أفكارها ونشاطها.

واستمر الحال على هذا النحو طيلة القرنين السادس والسابع للهجرة، حيث كانوا يقومون بتلك الرّحلات ويأخذون عن المتصوفة الذين التقوا بهم بعض الطرق ويقومون بنشرها إلى أوطانهم مثل «ما حدث مع الشيخ أحمد التيجاني* مؤسس الطريقة التجانية الذي أخذ عن أحمد بن عبد اللّه الهندي** في مكة والقطب سيدي محمد بن عبد الكريم *** بالمدينة المنورة أثناء أداء فريضة الحج».[1]

كما انتشرت في هذه الفترة الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية،« لكن التصوف بقي منحصرا في النخبة ممن يملكون رصيدا في علوم الدّين وعلوم العقل، حيث احتوته المدن الكبرى التي عرفت نهضة علمية، منها تلمسان وبجاية، فقد تميز التصوف خلال هذه الفترة بميزة هامة وهي تقييد بالكتاب والسنة والابتعاد عن تيار التصوف الفلسفي»[2]، وفي أوائل القرن الثامن للهجرة «مال التصوف إلى الركود ثم ظهر فجأة على شكل حركة شعبية قادها ابو الحسن الشاذلي * وفي أواخر القرن اتخذ التصوف شكلا تنظيميا تمثل في الطرق أو الطوائف كما يطلق عليها حيث أقام المتصوفة لأنفسهم خلوات من أجل العبادة الزائدة وإرشادات الأعضاء في الممارسات

---

[1] أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، ص 284 .

[2] الطاهر البونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 هـ/ 12، 13 ص283.

* أبو الحسن الشاذلي: هو علي ابن عبد الله ابن عبد الجبار ابن تميم ابن هزمير بن حاتم بن قصي بن يوسف المغربي، من كبار الزهات شيخ طائفة الشاذلية كان كبير القدر وكثير الكلام، عالي المقام، توفي بصحراء عيذاب سنة 656 هـ و هو قاصد الحج ودفن بها.

الروحية وإنما حرصوا على توفير حياة يسودها الولاء والإخلاص والطاعة للقائد أو المرشد هذه الطريقة أو الطائفة»[1].

ويذهب المؤرخ الجزائري الشيخ "عبد الرحمان الجلالي" «إلى أن انتشار الطرق الصوفية وتعددها وتفرعها إلى فروع عديدة يعود إلى القرن الثامن للهجري وقد فاق عددها الثمانين طريقة وتحدث الشيخ حسن بن علي الفجيجي** في رسالة له مخطوطة عن أربعين طريقة وذكر ما تميز به أهل كل طائفة»[2].

وهكذا كانت نشأة التصوف بالمغرب الأوسط إلى غاية القرن الثامن للهجرة حيث مر بمراحل عديدة، ففي العهد العثماني انتشر بكثرة حيث إن الأتراك أنفسهم كانو متأثرين بالتصوف ولما دخلوا الجزائر وجدو أن أقرب الناس إليهم هم رجال الدّين فأخذو يتقربون منهم ويتبركون بهم وكان ذلك بإكثار الهدايا والعطايا وكثرة زواياهم وإعفائهم من الضرائب وتشجيعهم على بناء المساجد والقباب والمزارات واحترامهم لأوليائهم ومثال عن ذلك، «ما حضي به أحمد بن يوسف الملياني من احترام له ولأتباعه خاصة أنه اشتهر كقطب من أقطاب الشاذلية»[3]، وهذا ما ساعد على انتشار التصوف ورجاله خلال العهد العثماني في الجزائر.

---

[1] بوغديري كمال: الطرق الصوفية في الجزائر الطريقة التجانية كنموذجا (رسالة دكتوراه)،جامعة الدكتور محمد لمين دباغين، سطيف، 2014،2015، ص 238.

** حسن بن علي الفجيجي: كنيته أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن أحمد البرزوزي الفجيجي، شيخ الإمام، الجامع الهمام، ذو العلوم الظاهرة و الباطنة جمع بين علم الشريعة ودرجة حقيقة الولاية، أخذ العلم بالفجيج عن والده سيدي عبد الجبار بن أحمد.

[2] صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البرق، لبنان، بيروت، (د ط)، ص131 132.

[3] صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، ص 269.

وقبل مجيء الأتراك إلى الجزائر كانت هناك طريقتان هما: القادرية والشاذلية فقط، وبعد قدومهم أخذت الطرق الصوفية تتعدد وتتكاثر، «حيث بلغ عددها ثلاثاً وعشرين طريقة تضم (295،179) من المريدين والإخوان ويقوم بتسييرها وإشراف عليها سبعة وخمسون شيخا بمساعدة حوالى ستة آلاف من مقدم و وكيل وعامل تملك هذه الطرق تسعة وأربعون وثلاثة مئة زاوية إلا أن أكثر الطرق الصوفية وأوسعها انتشار هي الطريقة الرحمانية»[1].

ويري الجيلالي نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية أن أهم الطرق في الجزائر من حيث الانتشار وعدد الأتباع كما يلي: «الرحمانية، القادرية، التجّانية ثم السنوسية، الشاذلية، العلاّوية، الدرّقاوية، العمّارية، الحنصّالية، الزّيانية، المسّاوية، والقائمة طويلة يصعب تحديدها»[2]، فتعدد واختلفت الطرق الصوفية في الجزائر كل حسب مؤسسها ونشاطها و هذا إن دل فإنما يدل على سعة انتشار التصوف في الجزائر، «ويذهب بعض الدارسون إلى أنه ممن الممكن جدا الإقرار بالمبدأ القائل، بأن كل الجزائريين عند بلوغهم سناً معينًا ينخرطون في طريقة أو في أخرى أو في عدة طرق في نفس الوقت، وهذا قبل وخلال المرحلة الاستعمارية، حيث كانوا السكان يبحثون لدى شيوخ وأصحاب الطرق، إبتدءاً من السن الذي يتم التخلص من الإرغام والضغوطات الأبوية والعائلية بصفة عامة»[3]، ذلك أن لكل جزائري طريقة يسير تحت تعاليمها وبعد الغزو الفرنسي للبلاد لم يعد هناك وقت لدعوة إلى الدين، «بل العمل على ضم أكبر عدد ممكن من التابعين وهكذا كان الجمهور يتقدم كل يوم بأعداد هائلة للتماسا الانضمام

---

[1] عبد العزيز راس مال: الزوايا و الأصالة الجزائرية بين التاريخ و الواقع، منشورات نالة الأبيار، الجزائر، ج2، (د ط)، ص380.

[2] المرجع السابق، ص87،86.

[3] عبد العزيز راس مال: الزوايا و الأصالة الجزائرية بين التاريخ و الواقع، ص380.

إلى فروع الجهاد»[1] وهذا ما عمل على ظهور الزوايا والطرق الصوفية بكثرة داخل المجتمعات الجزائرية وبالتالي تعرض التصوف إلى مقاومة وتصدى من قبل أعضاء وتمثلوا في «الجماعة السلفية وهذا خلال المرحلة الاستعمارية، والمعروفة باسم الإصلاح في الجزائر وهي مجموعة من العلماء خاصة أعضاء جمعية العلماء المسلمين هؤلاء أعلنوا الحرب على رؤساء الإخوانيات ذلك أن التصوف في نظرهم كان سلوكاً محموداً في بادئ الأمر ولكن أصابته الخرافات بفعل غير المتدينين والجهلة في الدين»[2].

أما في جزائر الاستقلال فإنها أقصت رؤساء الإخوانيات من السلطة الدينية في الصراع ضدها حيث اتُهموا هؤلاء بإشاعة البدعة، ذلك أنهم حاد عن مسار التصوف وخرجوا عن قواعده وأحكامه وانغمسوا في نشر البدع والخرافات»[3]، وهناك من يقول إن بعد الاستقلال مباشرة انصاع الكل وراء بريق التقدمية تحت ضغط الحرمان الموروث عن العهود البائدة، كما آلت أمور التربية والتعليم إلى أشخاص ممن يكّنون وراثيا الضغائن للتصوف ، فشوهوا التاريخ الإسلامي ورّسخوا في عقول الناشئة المتعطشة للعلم والمعرفة نضال فئة معينة من المجتمع، «لعل دراسة أسرار الصوفية والمدارس التصوف في المغرب العربي عموما والجزائر على وجه الخصوص تعيد إلى الزوايا قليلا من الاعتبار وتجبر الضرر الذي لحقها عبر حقب متعاقبة من تاريخ الأمة

---

[1] بوعتو بشير: التصوف في الجزائر، دراسة وصفية تحليلية للطرق الحبيبية والهبرية والرحمانية والأوسية، دار السبيل للنشر والتوزيع، ج1، الجزائر ،(د ط)، ص376.

[2] المرجع نفسه، ص212

[3] المرجع نفسه، ص213.

خاصة ما تعرضت له من طرف الاستعمار الفرنسي»[1].

3- **التصوف في عصر الرحالة خلال القرن(8) للهجرة:**

يعدّ القرن الثامن الهجري من العصور التي ازدهرت فيها العلوم والآداب وهيمنة الثقافة الدينية والرّوحية في عصر المرنيين «حيث انتشر التصوف خلالها ونبغ رجال استفادوا من التراث الثقافي الذي خلفته الدولتان العظيمتان المرابطية والموحدين حيث كانت الإنتاجات التي ظهرت في أواخر هذا القرن إلى السنتين الأولى من القرن التاسع لا تضاهي إنتاجات الحقبة الأولى»[2]، لكن ما ميّز هذا العصر ظهور الطوائف الصوفية بكثرة والزوايا التي كان يرتادها المريدون والزائرون بصفة عامة، فعملت الزوايا والربط على نشر التصوف وتربية مختلف طبقات المجتمع على الأخلاق الحميدة والاجتهاد في العبادات ونبذ شهوات الدنيا، وهجران الماديات وترويض النفس على ذلك، «وقد تكاثرت الزوايا في المغرب بعد ذلك انطلاقًا من القرن 8 للهجري حيث بنيت حولها المدارس واستقر فيها الطلبة والفقراء»[3] ، فكانت بمثابة مؤسسات دينية واجتماعية، « فهذا العصر يمتاز بانتشار الأفكار الصوفية واستيلائها على عقول المثقفين نتيجة للحركة التي بدأت أيام الموحدين وقد قوى هذا الاتجاه ضعف المسلمين بالأندلس وتغلب النصارى عليهم مما جعل العلماء يحاولون بث الروح الدينية في نفوس المسلمين وإيقاد شعلتها من جديد ليتشبثوا بعقائدهم ويتحمسوا لها دفاعًا عن

---

[1] بودواية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي، دار القدس العربي للنشر و التوزيع وهران، الجزائر، (د ط)، ص17.

[2] أبي العباس أحمد الخطيب : أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة الخامس كلية الآداب، الرباط، (د ط)، 1965، من المقمة، ص ب.

[3] جمال علال البختي: الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع للهجري، دراسة تاريخية وقراءة تحليلية في مواقف ابن خميس السبتي من التصوف والمتصوفة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2005م، ص 46.

بيضة الإسلام ورد الهجمات الاستعمارية الصليبية التي بدأت تعمل على الاستيلاء على بلاد المغرب العربي»[1]، كما امتاز هذا العصر بتبادل ثقافي واسع النطاق بين مختلف نواحي المغرب العربي، «مما جعل علماء هذا العصر وأدباءه وكُتّابه يجوبون هذه الأقطار آخذين بعضهم عن بعض ومشتغلين في الوظائف العلمية والقضائية والحكومية، فقد بلغت في هذا العصر أيام المرنيين العلوم والآداب والفنون أوجها ببلاد المغرب العربي»[2].

4- الكرامة:

أ- **لغة:** تعددت التعاريف اللّغوية بالقدر الذي يُجل الموضوع فجاءت هذه التعاريف تدور في مجموعها العام حول لفظة "الكرامة" ومنه ما جاء في لسان العرب، حيث وردت اللفظة كالآتي: « الكُرَامُ بالضم، مثل الكَرِيمُ فإذا أفرط في الكَرَم، قلت: كُرَّام بالتشديد، والتكريم والإكرام بمعنى: والاسم منه كرامة، والكرامة اسم بوضع الإكرام، كما وُضِعت الطاعة موضع الإطاعة، والغارة موضع الإغارة والمكرّم الرجل الكريم على كل أحد، ويقال: كَرُم الشيء الكريم، كرمًا وكرُم فلان علينا كرامة، والمكْرُمة والمكْرُم فعل الكرم»[3]، كما ورد في التعريف فالكرامة من الكرم فتعني العطاء والسخاء والجود، أمّا في معجم الوسيط فقد وردت لفظة كرم بمعنى: « كَرَمَهُ كَرْمًا: غلبه في الكَرَم، يقال كَارمَهُ فكَرَّمه: فاخره في الكرم، فغلبه فيه، (كَرُمَ) فلان كرمًا، وكَرَامةً: أعطى بسهولة وجاد، فهو كريم، والإكراميَّة: العطيّة، الكَرَامَةُ: الأمر الخارق للعادة غير مقرون

---

[1] المدونة، من المقدمة، ص ج.

[2] المصدر نفسه، من المقدمة ص ج.

[3] ابن منظور: لسان العرب، باب الكاف، مادة [كَرَمَ]، ج3، ص 3863.

ب-بالتحدي ودعوى النبوة، يظهره الله على أيدي أوليائه»[1]، فالكرامة جاءت بمعنى الشيء غير مألوف وعادة تظهر على أيدي الأولياء والصالحين، وهذا ما يميزهم عن باقي البشر.

ب- اصطلاحًا: رغم تعدد التعاريف إلاّ أنها تصب في قالب واحد، ومن التعاريف نجد أن الكرامة اصطلاحًا هي: «فعل خارق للعادة تظهر على يد عبد صالح في دينيه متمسك بسنة الله في جميع أحواله من غير ذي التنبؤ، وينتمي أصحاب الكرامة من الصوفية إلى الشرائح البسيطة في المجتمع»[2] .

وفي اعتقاد الباحثين أنّ الكرامة الصوفية «ليست مجرد ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية ومشاهدات سحرية وخرافية، بينما هي في واقع الأمر إفراز لظروف تاريخية صعبة سقطت بظلالها على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع ويظهر في شكلها الظاهري، أنها مجرد نصوص أدبية تحمل صورة القصص القصيرة التي عادة ما تروى قصة الصوفي الذي يمتلك القدرة الخارقة على تجاوز سنن الكون، كتسخير الحيوان والمشي فوق الماء والطيران في الهواء...» [3]، والملاحظ هنا قد ارتبطت الكرامة الصوفية بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع ليست أمر خارق للعادة أمّا من حيث مدلولها الفكري والمعنوي «فهي بنية أساسية في الفكر البشري كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وممارسة لمعتقد ديني وتأكيد لهذا المعتقد».[4]

---

[1] معجم الوسيط، باب الكاف، مادة [كَرَمَ]، ص 784.

[2] الطاهر البونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7/ 12و 13، ص 178.

[3] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، (د ط)، ص 177.

[4] إبراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب العربي، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م، ص 132.

إذن فالكرامة هي الفعل الخارق للعادة وغير مألوف في الحياة المعهودة يظهر على يد الولي الصالح، ويقابلها لدى الأنبياء المعجزة والاعتقاد السائد بأنّها لا تزول بعد وفاة صاحبها، بل تلزم قبره وتكون سبب في التواصل بينه وبين الناس وكرامة عون الولي على طاعته ومقومة ليقينه وحاصلة على حسن استقامته ودالة على صدق دعواه.

فالكرامة كما ذكرنا سالفًا اقترنت بالأمر الخارق للعادة، وهذا ما ذهب إليه الجرجاني في قوله «إنّ الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونًا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجًا وما يكون مقرونًا بدعوى النبوة يكون معجزة».[1]

و جملة القول في توضيح معنى الكرامة أنّ الله تعالى خلق الكون وسيره على قوانين محكمة مطردة لا تختلف ولا تتعارض وربط الأسباب بمسبباتها ونتائج بمقدماتها وجعل الظواهر الكونية خواصها وهكذا... ثم يجري النظام الكوني على العادة التي ألفناها فإذا حصل أنْ رأينا الظاهرة من غير أسبابها ووجدنا النتيجة لم ترتبط بمقدماتها كان ذلك خرق لهذه العادة المألوفة فيبقى النظر فمن حصلت على يديه هذه الخارقة من حيث الصلاح والغرض الذي ظهرت هذه الخارقة لأجله تحقيقه.

5- تعريف الشيخ:

تعددت واختلفت التعاريف لفظة الشيخ لكنها تنطوي تحت مفهوم واحد تجمع بين تلك التعاريف، «فالشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكفيل فيها لعلمه بآفات النفوس ودائها ومعرفة بدوائها وقدرته على شفائها والقيام بهداها أن استعدت ووقعت لهداها، وقال آخر: فالشيخ هو الذي سلك

(1) علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985م، ص 184.

طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك فيرشد المريد ويشير إليه لما ينفعه وما يضره»[1]، فالشيخ بمثابة الحجر الأساس في الطريقة وعليه تقوم الطريقة.

وهناك من اعطى له مفهوم آخر وتمثل في أنه «الوسيلة الصادقة للتقرب إلى الله فهو المربي الذي مر بتجربة وخالف النفس وانتصر على الهوى وهو الملقن الذي يُبصر المريد ويلقنه سبيل الرشاد وينجيه من العوائق والعثرات حتى يستقيم حاله ويتعرف على الطريق الحق اتجاه إلى الله»[2]، فالشيخ هو بمثابة معلم والموجه والمرشد للمريد.

كذلك أخذ مفهوم آخر تجسد في أن: «الشيخ هو المرشد الروحي الذي سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك والحدود، وهو الذي تولى تربية المريدين والإشارة إليهم لمستلزمات السلوك ومقتضيات الوصول إلى قرب الخالق عزّ وجل، ولابدّ أنْ يكون الشيخ أخذ الطريقة عن شيخ سابق»[3]، كما جاء في قاموس المصطلحات الصوفية بأن الشيخ هو «الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرًا عينيًا وتحقيقًا يقينيًا»[4]، وذلك أن الشيخ خصه اللّه بالمعرفة دون باقي البشر.

---

(1) كاتب مجهول: الأنوار الربانية والأضواء السنية على الطريقة الرحمانية الخلوتية، (د ط)،الجزائر،2012م، ص 09.

(2) منال عبد المنعم جاد الله: التصّوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د ط)، ص 190.

(3) يوسف محمد طه زيدان: الطريق الصوفي وفروعه القادرية بمصر، دار الجيل، بيروت، (ط1)، 1991م، ص 44.

(4) أيمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية، "دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء"، دار القباء للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، ص 74.

كما سمي الشيخ أيضًا ب: «خليفة الورد ومولى الطريقة هو حامل البركة التي عرّفها بعضهم بأنها الكثرة والعندّية والقناعة المعنوية، وهو الذي يرث إمام الطريقة أو المؤسس، وقد يكون الشيخ وليًا صالحًا أو عالمًا شهير كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي* في الجزائر وأبي مدين** في تلمسان، وذهب بعضهم إلى أنّ الشيخ قد يكون من الجن سواء كان له اسم أو لا وقد يكون شخصية مجهولة إلى حدّ كبير»[1].

فإذا كان المريد يمثل القاعدة الهرم فالشيخ يأتي على رأس الهرم، ويمثل حجر الزاوية في الطرق الصوفية فذهب بعضهم إلى القول بأنّ الشيخ « مؤسس الزاوية والأصل الأول في الطرق الصوفية فلكل طريقة صوفية شيخ الطريقة، بمثابة أستاذ ومربي للمريد والأدب الروحي يسيطر حياة مريد تبعًا لنسق من الأفكار والممارسات تزاوج تلك التي يستعملها رب الأسرة وسط أسرته ونسبه» [2]، فالشيخ يُمثل الركيزة الأساس في الطريقة الصوفية فهو بمثابة الأب والمرودين الأبناء فيتحمل عبء تربيتهم وتعليمهم وتوجهيهم إلى جانب ذلك «فالشيخ المتعارف عليه في الأزمنة المتأخرة عند أهل الطرق الصوفية هو الذي يُعطي البركة لغيره وهو الذي يعين، ومنهم من يعتبر الشيخ هو ظل الله في الأرض والنائب عنه في نظر البعض»[3]، وهذا ما ذهب إليه معظم الصوفية، وهذه جملة التعاريف التي تطرقنا لها حول مفهوم الشيخ.

---

* عبد الرحمن الثعالبي: هو القطب الغوث الجامع بين الشريعة والحقيقة، الولي الصالح الزاهد أبو زيد عبد الرحمان بن طلحة، فهو جعفري النسب، ولد الثعالبي 875هـ ، بواد يسير بتلمسان نشأ منشأ علم وصلاح وأخلاق فاضلة، واستقر بالجزائر بعد رحلته الطويلة لطلب العلم واستغل بعبادة ربه إلى أن وافته المنية سنة 875هـ ، وقبره مزار يتبرك به في منطقة باب الواد بالجزائر.

** أبو مدين شعيب: هو الشيخ أبو مدين شعيب بن حسن الأنصاري التلمساني ولد باشبيلية سنة 492هـ، ولنا وقفة شاملة في الفصل التطبيقي حوله.

(1) أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 11.

(2) عبد الله حمودي: الشيخ والمريد، دار توبقال للنشر، المغرب، (ط3)، 2003م، ص 112.

(3) أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 11.

1- سيمات الشيخ:

كما عرفنا من خلال مفهوم الشيخ مجموعة من المواصفات كحجر الزاوية والمؤسس للطريقة ومربي ومرشد وأستاذ المريد، فعليه أنّ يتصف بمجموعة من السمات التي ترقى به إلى مصاف الشيوخ كأن يكون:

- «عالمًا بالخواطر: يعني العالم بالنفوس وآفاتها ودائها ودوائها.

- أنْ يتصف بالتواضع للمريدين بالتنزّل إلى درجتهم: أنْ لا يكون متكبر متجبّر، أنْ يخفض جناحه للمريدين.

- أن يرفق بهم ويرأف بالمريدين: أن يكون لين معهم رفيق بهم.

- يعاتب المريدين على كل هفوة وذلك بالحرص الجيد للمريدين وكيفية تلقينهم تعاليم الدرس الصوفي وعلى كل مريد يخطئ يعاقب ولو كان خطأ بسيط فعلى الشيخ معاقبته على ذلك.

- تحفظ على المريدين أوقاته: أن يجبر ويلزم تلاميذه بالأوقات المحددة.

- أن لا يخرج على أصحابه إلاّ في أكمل صورة وأنْ لا يمكنن لأصحابه يزورون شيخًا آخر: أن يتزين ويتجمل وأن يلتقي مع أصحابه بهيأة شيخ سواء من الناحية الملبس أو الأخلاق.»[1].

لكل شيخ طريقة تخصه لا يتعداها ولا يخلطها بغيرها، فيجب على الشيخ أن يلتزم بطريقة واحدة ولا يندمج مع أي طريقة أخرى.

وأن يكون الشيخ على دراية بالعلوم الشرعية والإشارات الصوفية بحيث يجمع بين الشريعة والحقيقة الصوفية، وأن يكون على علم بالعقيدة الإسلامية علمًا يقينيًا ومعرفة الحقيقة الصوفية، «ولا يجوز للشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلد بسيف

---

[1] أبى النجيب عبد القادرية بن محمد السهروردي القرشي الصديقي البكري: آداب المريدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،(ط1)،2005،ص 110.

العناية حتى تكمل فيه اثنتا عشرة خصلة: خصلتان من الله أن يكون صادقًا ستاراً غفارًا، وخصلتان من النبيّ أن يكون شفيقًا ورفيقًا، وخصلتان من ابي بكر يكون صادقًا متصدقًا... »[1]، فعلى الشيخ أن لا يرتقي إلى مصاف الشيوخ إلاّ إذا اكتملت فيه اثنتا عشرة خصلة منها: الرفق، الصدق، الستر الغفران .... وأن يكون مستراحًا لمريدين وكهفا لهم وملاذًا وخزانة وحرزا لأسرارهم ولا يغتاب ولا يذكر المساوئ ولا يفشي الأسرار فتنفر القلوب من مصاحبته يصير في أهل التصوف وينفرد عن المريدين ويشتغل بمجاهدة نفسه ورياضها، فالشيخ يجب أن يكون ملاذً وملجأ لمريدين ومكمن أسرارهم وأن يحرص حرصًا شديدًا على أسرارهم وخباياهم.

6- <u>المريد:</u>

تعددت التعاريف حول المريد، حيث نجد أن التلميذ شيخ الطريقة ورتبة من رتب الصوفية، «وهو سالك الطريق الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقة كما يرسمه له الشيخ حتى يصل إلى غايته»[12]، فهو من يتبع إرشادات شيخه دون معارضة ويتبع احكامها بصدق وإخلاص.

وأيضًا: «يشكل قاعدة الهرم ويطلق عليهم اسم الإخوان في المغرب العربي مثلاً: عند القادّرية يعرفون باسم الأحباب»[23]، فاختلفت تسمية المريد وتعددت من طريقة إلى أخرى فمنهم من يطلق عليهم بالأصحاب ومنهم من يطلق عليها الإخوان وهكذا.

فالمريد: «المراد به من يريد الوصول إلى الله تعالى بطريق الأذكار والمحافظة عليها»[34]، ذلك أنه يسعى جاهدا ويريد التقرب إلى اللّه عز وجل بحفظ الأوراد وذكر

---

(1) يوسف محمد طه زيدان: الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، ص 47.

(2) كاتب مجهول: الأنوار الربانية والأضواء السنية على طريقة الرحمانية الخلوتية، ص 10.

(3) محمد عبد الله: الفتح الرباني، (د ط)، (د ت)، ص 31.

(4) أبي بكر جابر الجزائري: إلى التصوف يا عباد الله، در البصيرة، الإسكندرية، (د ط)،(د ت)، ص 23.

الاذكار والعمل بها وفق ما ت اليه كل طريقة. ذلك أنه « أصبح داخلاً في الطريقة ولكنه ما يزال في بداية الطريق إلى الله فهو الرّاغب في الله الساعي إلى حرمة الأمن وإذا تقدّم المريد في ممارسات الطريقة وتعاليمها يصبح فقيرًا»[1].

ومن ذلك فالمريد هو «الذي عرف جلال الربوبية ومالها من حقوق في مرتبة الألوهية على كل مخلوق وأنها مستوجبة من جميع عبيده دوام الدؤوب بالخضوع والتذلل إليه والعكوف محبة وتعظيمه ودوام الانحياز إليه وعكوف القلب عليه ومعرضًا على كل ما سواه حبًا وإرادة فلا غرض له ولا إرادة في شيء سواء لعلمها»[2]، فالمريد يكون على علم ودراية بعظمة اللّه عز وجل وسمو مكانته زان يشدد في تعظيمه وطاعته له بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.

ومنه فالمريد «جمعها مريدون هم الذين يتلقون يتعلمون من شيخ طريقة، والمريد رتبة من رتب الصوفية، وللمريد درجات وعليه أنْ يقرأ أوراده فاليوم والليلة يكلفها بها شيخه ليسير على طريقته في التصوف وذلك ضمن تربيته للمريد وتختلف الطرق التي اتبعها شيوخ الطرق المختلفة في تربية مرديها»[3].

إذن حسب التعاريف السابقة فالمريد هو الذي يسير وفق منهج شيخ الطريقة ويمتثل لأوامره وحتى يصل إلى مبتغاه من خلال ما يقدمه له الشيخ من تعاليم ودروس وأذكار وأوراد ويمر بعدة مراحل مختلفة فبداية بالمريد ثم الفقير وهكذا... ولكل مريد شيخ خاص به، ولا يجب أن يخلط بين الشيوخ.

---

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج4، ص 18.

(2) أيمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية "دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أصل الصفاء من كلام الأولياء"، ص 87.

(3) عبد الله بابا حدة: تمثل الأولياء الصالحين لدى مريدي الزوايا "دراسة ميدانية لمريدي الزاوية القادرية بورقلة"، مذكرة مقدمة استكمالاً لمتطلبات شهادة ماستر أكاديمي، التخصص علم الاجتماع، 2013-2014، ص 10.

فالمريد اسم يُطلق على مجموعة من الطلبة يتبعون شيخ محدد يتزودون من علمه وحكمته، جمعت بينهم روابط المودة وأخوة في الله تعالى ومجموعة من الآداب تحلّوا بها كالإحسان ، التخلق بالأخلاق الجميلة، التواضع الصبر... وأيضًا فالمريد هو فرد يقصد مكانًا معيّنًا بطريقة مستمرة ودائمة.

1- آداب المريد مع شيخه:

وعلى المريد مجموعة من الآداب التي يتحلى بها إزاء شيخه نذكر ما يلي:

- «أن يسلم المريد نفسه إلى شيخه وأن يكون كالطفل مع والديه»[1]، وذلك بإمتثال الكامل لأوامر شيخه ونواهيه دون معارضة أو ردة فعل منافيًا لما يدعو له شيخه.

- «أن يكون اعتقاده فيه صحيحًا ويطيعه في جميع ما يأمره به من غير أن يسأله عن علة ذلك أو عن فائدة ذلك ولا يعترض عليه لا ظاهر ولا باطن، ولا يملأ عينيه بالنظر إليه، ولا يدعوه باسمه، وقالوا لا يجلس ركبتيه بركبتيه، ولا يمشي أمامه إلا بالليل، ولا يجلس في مكانه، ولا ينطق بين يديه جوابًا له ولا يرفع صوته على صوته بكلام وضحك ونحو ذلك»[2]، فعلى المريد أنْ يحسن الظن ويرى في كل ما يدعو إليه صحيحًا دون التشكيك فيه من دون مساءلة أو استفسار حول ذلك، كما لا يناديه باسمه ولا يجلس ويضع ركبتيه بركبتيه، ولا يعلي صوته في حضرته بالكلام أو الضحك في وجهه.

-كما «لا يجلس بحضرته متربعًا ولا منكشفًا رجليه ولا يبسط سجادته بحضرته إلا لصلاة ولا يفتي في مسألة بحضرته إلا بإذنه، ومتى دخل عليه قبل يده أو رأسه أو أطرق رأسه، ويوقر مجلسه ويتجنب صحبة الأغنياء»[3]، على المريد عدم الكشف

---

(1) أبو بكر جابر الجزائري: إلى التصوف يا عباد الله، ص 10.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه، ص 11.

على ساقيه أو رجليه أمام شيخه ولا يُفتي إلاّ بأمر من شيخه، وأنْ يلقي التحية على شيخه كلّما دخل وذلك بتقبيل يده أو رأسه وأن يبتعد على صحبة الأثرياء.

– كذلك «إذا وقع له شيء من وقائع الطريق فلا يظهره على غير شيخه يشاوره في كل أموره ووقائعه، ولا ينفر عنه بواقعة من الوقائع، يطلعه لما نزل به إن كان حاضرًا ولا يستحسن شيئًا من نفسه في حضرة شيخه، وأن يتمسك بشيخه تمسك الأعمى بالقائد على شاطئ البحر»[1]، ومن خلال ذلك فعلى المريد الالتزام بجملة الآداب اتجاه شيخه وأن لا يخالف ما جاء به ويتبع ما يأمره ويجتنب ما ينهو عنه حتى يحصل على مبتغاه من العلم والمعرفة وكل ما يصبو إليه.

فالمريد بلا شك يقع في المتناقضات وينقاد إلى المهلكات دون أن يدري لأنّه لا يعرف ما هو حق وما باطل، ولذلك يجب عليه الذوبان والانصهار في ما يأمربه شيخه، فالعلاقة بين الشيخ والمريد يجب أنْ تكون قوية ومتماسكة «يجب أنْ تقوم أساسًا على الحب والتسليم والطّاعة والاعتقاد في علمه الظاهر والباطن»[2]، وذلك لأنّ العلاقة بينهما هي أهم دعامات الطريقة الصوفية، فبدونها لا يستقيم طريق المريد بل لعله لا يوجد له طريق أصلاً، ومن المبالغات الواردة على ألسنة المشايخ أن أهمية الشيخ للمريد كأهمية الوضوء للصلاة حتى استعملوا في ذلك القاعدة الفقهية الشهيرة «لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب»[3]، حيث اعتبر الشيخ ضرورة للمريد وعلى المريد أنْ يكون له شيخًا وإن لم يكن كذلك لم يكن في مصاف المريد.

---

(1) أبي بكر جابر الجزائري: إلي التصوف ياعباد اللّه، ص10.

(2) منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، ص 191.

(3) المرجع نفسه، ص 189.

7- لمحة عن زيارة الأضرحة والمقابر:

تعدّ زيادة الأضرحة نوع من الطقوس الدينية والممارسة في المجتمعات، والمتمثلة في زيارة القبور والأضرحة بدافع التبرك والتوسل بالدّعاء من أجل تحقيق غايات مختلفة.

أ- الزّيارة: فالزّيارة في مصطلحها العام تتعدد وتختلف أما لدّى الصوفية تعتبر ظاهرة مشتركة بين مختلف الطرق وأيضًا لدى المرابطين وهي تعني التوجه إلى شخصًا ما أو مكان معظّم دينيًا، وزّيارة الأضرحة عادة مرفوقة بالعطاءات من دراهم وغيرها، وقد ارتبطت الزّيارة بالدّراهم حتى أصبحت هذه لا تُذكر صراحة، والزّيارة يطلق عليها بالترحم عند المتصوفة ومن ذلك نجّد أَنّ «(الترّحم) بالنسبة للطرق تصبح واجبًا على الإخوان، إنها في الواقع من الضّريبة تدفع للمقدم علامة على الإخلاص والطاعة، فالزّيارة عند الطرق واجبة ومحددة»[1]. فالزّيارة أحد أهم المقومات الأساسية للمتصوفة وتمثلت في دفع مبلغ من المال دليل على صدق والنية والإخلاص.

ب- الضّريح: عُرف الضريح بمفهومه العام بأنه «الشق الذي يكون وسط القبر، وقيل هو القبر كلّه، فالضّريح هو ما يطلق على البناء المشيّد على القبر (أي فوقه) ويتميّز ببساطة الشّكل والتصميم عادة، ولا يرى إلى شكل العمارة الدينية كالمساجد ولا العمارة المدنية، كالقصور والمنارات»[2]، فالضّريح ذلك البناء الذي يقع فوق قبر الولي.

فالضّريح لا يقتصر على قبر واحد في مكان واحد، بل يمكن أن نجد عدّة أضّرحة لشخص واحد في أماكن متفرقة ويمثل الضّريح رمز لتقوى والصلاح وهو مكان لالتماس البركة والخير والدعاء المستجاب، فقد يُقصد (يُزار)الضّريح من قبل العديد من الفئات الاجتماعية وذلك بغية الدعاء والتوسل ولتحقيق رغباتهم فمنهم من

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 20.

(2) نوار سامي محمد: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللّغوية، دار الوفاء، مصر، ص 112.

يتوجه لطلب الرزق ومنهم من يطلب الإنجاب والأولاد وهذه الظاهرة ترتبط أكثر بالنساء دون الرجال، خاصة لطلب الزواج من قبل الفتيات، فظاهرة زيارة الأضرحة تحضي بزيارة خاصة حيث تقام الطقوس والشعائر وممارسات وتقديم الهدايا والأموال والذبائح لذلك الضريح من أجل تحقيق الدعاء، كما تقام الصلوات والأدعية والزغاريد والقرابين والقيام بألعاب وحركات معينة والتبخير والتداوي عند القبر وبعض هذه الأعمال تكون فردية وجماعية، وفي اعتقاد الصوفية أنّ زيارة أضرحة الأولياء الصالحين للتبرك بهم والطلب إكرامًا له واستئناسًا به، لأنّ الولي لا تذهب كرامته بعد وفاته بل تلزمه في قبره وتلتصق بترابه والمكان المدفون فيه وذلك ما جاء على لسان الرحّالة: « فالكرامة لا تنقطع بموت صاحبها بل تلزم قبره بعد وفاته»[1](1)، فالكرامة هنا يُقصد بها تلك المعجزات التي تحدث عند التضرع والتوسل عند قبر الولي، ويكون الهدف من زيارة الأضرحة كمعالم قدسية لأسباب وغايات مختلفة.

[1] المدونة، ص10.

الفصل الثاني

1- الكرامة الصوفية.

2- ترجمة للشيوخ.

3- الأضرحة والمقابر.

4- أهم الطوائف في الرحلة.

1- الكرامة الصّوفية في الرّحلة:

الكرّامة في سجل التصّوف هي « الفعل الخارق للعادة وغير المألوف في الحياة المعهودة يُظهرها الولي الصالح ويقابلها لدى الأنبياء المعجزة والاعتقاد السائد بأنها لا تزول بعد وفاة صاحبها بل تلزم قبره وتكون السّبب في التواصل بينه وبين الناس ولذلك يلجأ إلى التبرّك بكل ما وجد وتعلق بالضّريح أو بجواره »[1] .

وهذه الرّحلة التي بصدد تناولها جاءت حافلة بالعديد من الكرّامات وصنفناها كالآتي :

أ- كرّامات الصّحابة:

فالكرّامات خصّ بها الله تعالى عباده الصالحين المتقين السائرين على الصراط المستقيم المتبعين الشريعة الإسلامية، فهي تأكّيد لصدق ولايتهم وورعهم وتُظهر إخلاصهم لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم «وإذا اقترنت الكرّامة بصّحة العبّادة فلا أَصّح من عبّادة الصّحاب[2]»، فظهرت على أيدي الصّحابة رضوان الله عليهم كرّامات عديدة فذكر ابن قنفذ أمثلة عن ذلك منها:

قصة «سارية الذي أرسله عمر بن الخطاب على رأس الجيش، فبينما عمر في حال خطبته يوم الجمعة، فجعل ينادي مَنْ على المنبر "يا سارية الجبل" يحثه على الرجوع إلى الجبل حيذرًا من العدو وبينهما مسيرة، أيام، فرآه وسمعه سارية فرجع إلى الجبل وسَلِّم من العدو هو وجنود» [3]، فكان لعمر رضي الله عنه في ذلك كرّامتان أحدهما : ما كشف الله تعالى عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدوّ، والثانية :بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة، كذلك قصة أبي بكر الصديق وهو يحتضر قال :« لعليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم، قال له :إن أنا مِت فغسّلوني وكفنوني وصلوا عليّ

---

[1] دحماني محمد، حكايات كرامات الأولياء في منطقة الشلف، ماجستير في الأدب الشعبي، كلية الآداب و اللغات، جامعة الجزائر 2012، 2013، ص 16.

[2] محمد بن محمد المرصفي: داعي الفلاح الى سبل النجاح: (د ط)، (د ت)، ص151.

[3] المدونة، ص 04.

واحملوني إلى روضة رسول الله عليه الصلاة والسلام، واستأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن أدفن إزائه، فإن فتح باب الرّوضة من غير فاعل أدفنوني بالرّوضة وإن لم يفتح فاحملوني للبقيع»[1]، ففعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما أمره أبي بكر بذلك فَفُتح الباب من غير فاتح برّا وكرّامة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودفنه محاذاة الرّسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو الحال بالنسبة « لعائشة رضي الله عنها في الدَّفن جانب أبيها حيث استأذنت»[2] هي الأخرى، والحكمة من دَفنهما إزاء النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما ربّما لقربهما منه في الدنيا، وكذلك في الآخرة أما عن كرّامات علي ابن أبي طالب فتظهر في هذه ذلك أنّه ذات مرة «عطش الناس فأزال حجر فنّبع الماء من تحته، وارتوى الناس، وكان رضي الله عنه يكلّم الموتى»، وكذلك قصة رجوع الشّمس بعد مغبيها لعلّي بن أبي طالب رضي الله عنه، حتى صلى العصر في وقته لاشتغاله بخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[3]، برًّا وكرّامة له فالشّمس تعود بعد مغبيها لأَن يُصلي علي صلاة العصر وهذه من الكرّامات النّبي وفضله على الصّحابة، وكذلك قصّة «البرَّاء بن مالك الذي كان إذا أقسم على الله تعالى أَبَرَ قسمه فإذا اشّتدت الحرب على المسلمين في الجهاد يقول يا برَّاء أقسم على ربَّك، فيقسم على الله فيهزم العدوَّ، فلما كان يوم القادّسية قال :أقسمت عليك يا ربَّ هزيمة العدوّ، وجعلتني أول شهيد، فهُزم أعداء لله، وقُتِل البرَّاء شهيداً»[4] كما كانت الملائكة تسَلم على عمران بن حصّين وتُكلِّمه.

فابن قنفذ ذكر بعض الأمثلة لكرّامات الصّحابة وبابا ذكرها واسع غير محدود لا تُحصّى ولا تُعد وسبب وقوع هذه الكرّامات للصّحابة والتابعين لرّسول الله عليه الصلاة

---

[1] المدونة، ص 05.

[2] المصدر نفسه، ص05.

[3] المصدر نفسه، ص04.

[4] المصدر نفسه، ص06.

والسلام إنّما حصلت ببرّكة إتباع رسول الله عليه الصلاة والسلام لِمَّا جاء به وما دعا إليه و الزّجر و نهى عنه دون معارضته، فانتشرت الكرّامات وتعدّدت وتنوعت لدى الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم لاستقامتهم وعلمِهم بما جاء في القرآن واتباعه.

ب- كرّامات الشيوخ:

استهل ابن قنفذ رحلته هذه بمقدمة كمكون ضروري، حيث قدّم فيها التعريف بالكرّامة والإشّارة إلى الولاّية واستدل ذلك بالقرّآن والحدّيث على صّدق الولاّية فالكرّامة دليل وبرّهان على صّدق الوليّ وغايته من ذلك الإشارة إلى أن رحلته جاءت للخوض في غمّار البحث عن الأولياء الصّالحين والغوص في كل ما اتصف به كل وليّ وما تميز به عن باقي الشيوخ من كرّامات و جهادات وعلوم وفقه وزّهد وعِلّم ودرّاية ومكاشفات و الفراسات، وذلك أن ابن قنفذ يقوم بالتّعريف المُجمل والمفصل عن صاحب الكرّامة من اسم ونسب ثم تطرق إلى ما اختص به ذلك الوليّ من كرّامات ومكاشفات، كما يذكر في سيّاق التعريف بشّيخ آخر ويورد كرامة لشّيخ آخر في نوع حكاية وهكذا جاءت رحلته حافلة بالعديد من كرامات الشيوخ والأولّياء الصّالحين التي ظهرت على أيْديهم ومنَّهم الله بها عن باقي الخَلق وذلك لزّهدهم وورعهم وصلاحهم في الدّنيا ومعرفتهم بالله تعالى و مواظبتهم على طّاعته واجتنابهم المعاصي ، ولذلك ظهرت على أيديهم الخوارق والعجائب، «فالكرامة هي قصة مقدَّسة أي قصة البرّكة والتي تعتبر قوة دينية خفيّة لا يملكها إلا أشخاص معيّنون وهم أوليّاء الصالحين، وتكون هذه البرّكة في أشياء أو أماكن معينة حَلُو بها، وتشبه الكرّامة معجزات الأنبيّاء وإن كل ما كان معجزة لنبيّ تجوز أن تكون كرّامة للوليّ»[1]، فالكرّامة تُعَبِر عن مدى قوة الوليّ الدّينية وتمسكه بالله تعالى والاقتداء بالنبيّ، وتختلف الكرّامات من وليّ إلى

[1] جميلة روباش: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014، 2015 ص123.

آخر وهناك من يظهرها وهناك من يخفيها تظهر عند موته وذلك من خلال قبره والذي يعد مزارا يزار.

وهذا ما تناوله ابن قنفذ حيث تحدث مطولا عن هذا ومن ذلك نذكر مجموعة من الكرّامات لبعض الشّيوخ التي وردت في الرّحلة:

1- **كرّامات الشيخ أبي مدين:**

ظهرت كرامات الشيخ أبي مدين وهو صغير ومن ذلك قصته، «لمّا كان صغيرا كلّفه إخوته برّعي الأغنام، وكلّما خرج لرّعي يجد مُصلى أو قارئ فيعجب به ويتقرب منه، فحزت نفسه فعزم الفرّار واللُّجوء إلى ذلك فباءت المحاولة الأولى بالفشل وأعاده إخوته وما إن قُويت عزيمته، فرا ليلا من الأندلس باتجاه المغرب ولحقه أخوه وسلَّ عليه السيف ليضربه فتلقى الضّربة بعود كان بيده فتكّسر السّيف إلى أجزاء، فعجب أخوه من ذلك وقال له :يا أخي اذهب حيث شئت[1]» ، وهذه كرامة من كراماته وهو صغير حيث دافع عن نفسه بالعصّا التي كانت بيده وصدَّ سيف أخيه فسقط السّيف قطعاً على الأرض فاحتار أخاه من ذلك، فأطلق صراحه، ومن حين ذلك ظهرت على يده كرّامات عدّة منها :

«أنه تخرّج على يده ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرّامة والبركة لذلك يقول له شيخ مشايخ الإسلام وإمام العبّاد والزّهاد»[2]، حيث كان عالما وفقيها وصالحا في الدّنيا حيث تتلمذ على يده العديد من المريدون وظهرت لكل منهم الفوارق والعجائب وهذه من برّكة الشّيخ أبي مدين، ومن كرّامته أيضا ذات يوم وقع نزاع شدّيد بين الطلبة في قول الرّسول عليه الصلاة والسلام «إذا مات المؤمن أعطى نصف جنته» وفي اعتقادهم أن المؤمن إذا مات أخذ الجّنة بكاملها، فاتجهوا إلى الشيخ أبي مدين ليقطعوا

---

[1] المدونة، ص11، 12.

[2] المصدر نفسه، ص16.

الشّك باليقين، فوجدوه يقرأ الرّسالة القشّيرية، فلّما استقربهم الجلوس أجابهم الشّيخ مباشرة عن المسألة دون أن يُطرح عليه السؤال، فقال :أراد الرّسول الله عليه الصلاة والسلام بنصف جنّته » :أن لكلّ مُؤمن جنّة، فإذا مات أعطى نصف جنّته وبعد الحشر يعطى النصف الثاني»[1]، وهذه من مكاشفات الشيخ ذلك أنه تنبأ بما في أذهان الطلبة دون الكشف عن ذلك وأجابهم عما يدور في أذهانهم.

ومن كراماته أيضا أنّه أتاه الشيخ أبو عمرّان بعد غيّاب وجلس في مجلس اقرائه فلّما فرغ من إقرائه سلّم عليه الشيخ أبي مدين وسأله عمن وجبت الضيافة على الزائر أم المُزار فسكت أبو عمران فقال له أبي مدين :عليَّ الطعام وعليك العسل فاتفق على ذلك فأحضر أبي مدين صِّحْفَة فارغة وغطّاها بثوبه وصلى ركعتين ثم خرج وأدخل الصِّحفة وهي مملوءةٍ عسلا أبيضاً فأكل الحاضرون وأكل منها خمس وعشرين يوما ولم تنقص»[2]، وهذه إحدى كرّامات الشّيخ أبي مدين من ذلك امتلاء الصِّحفة بعد أن كانت فارغة عسلا أبيضا، وأكل منه الحاضرون طيلة تلك المدّة ولم ينقص منه شيء فمن كرّاماته إكثار القليل من الطعام وهذا من برّكة الشيخ.

ومن كرّاماته أيضا :«أراد الشّيخان أبو محمد عبد الحق الإشبيلي وأبو علي المسيلي الاجتماع بالشيخ أبي مدين بعد أن سمع عنه الكثير فكان يبطلان ذلك ويفندانه فأرادا التأكد من صّحة ولايته وصّدقه، فاتجه إليه يوما فوجداه في إحدى المساجد التي يجلس فيها مع خواصه فسلّما عليه، وكان هذا أول اجتماع لهما به وما اجتمعا به قبل قط، ولا رآهم ولا لقيّ بهما، فقال الشّيخ «أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو علي المسيلي فقالا :نعم [3] فاحتار الشّيخان من ذلك

---

[1] المدونة، ص17.

[2] المصدر نفسه، ص17.

[3] المصدر نفسه، ص34،35.

وعجبوا من صّحة ذلك وصدقوا ما قيل فيه وما جاء بهم وهذه أيضا من مكاشفاته أنه تنبأ واطلع على ما حضر من أجله الشّيخان فأجابهم عن ما يدور بفكرهم واقنعهم بذلك

ومن كرامات الشّيخ أبي مدين أيضا أنه كان يذهب في خلوته لحفظ أية أو حديث أخذها عن شيخه خارج مدينة فاس فتأتيه غزالة فتشمه من رأسه حتى قدميه وتُؤْنسه، فذهب يوما إلى فاس ولقي رجلا من الأندلس يعرفه فسلّم عليه وكان عنده ثوبا مودعا عند رجل من أصحابه فسأله عنه وقال له بِعْه لي يريد أن يدفع ثمنه لضيف وصل إليه من الأندلس فباعه بدّراهم وجاء بها إليه فبحث عن الرجل فلم يجده فربطت الدّراهم في مئزريه، وخرج إلى خلوتيه كالعادة وكانت في الطريق قرية بها كلاب قال :ما رأيت أذى منهم قط بل كانوا يدورون حولي ويتقربون منيّ، فلمّا اقتربت من القرية اشّتد نبّاحهم حتى خرج أهل القرية وحالوا بيني وبينهم، ثم وصلت إلى خلوتي فجاءت الغزالة فنظرتني نظرا منكرا ثم صارت تنطحني بقرونها وأنا أدفعها بيدي، ففكرت في أمري فاهتديت إلى الدّراهم التي معي فرميتها، فسكنت الغزالة وركنت إليّ على عادتها، فلّما عُدت إلى فاس لقيت الرّجل فدفعتها له ثم خرجت إلى موضعي ومرّرت بالقرية فبصبصت لي الكلاب على عادتها وجاءتني الغزالة وشمتني كعادتها وركنت إليّ[1]، وهنا تمثلت الكرّامة في تودد الحيوانات لأبي مدين والتقّرب منه خاصة الغزالة والمعروف أنها تنفر من البشر، لكنها على العكس بل تأوي إلى الشّيخ وتَأْنس إليه، وهذه مِنَّة خصّه الله تعالى به وفضله عن باقي البشر وذلك أنه لين قلب الحيوانات له وحصل على حبهم وودهم إليه.

ومن كرّامته أيضا أنه « قصده يوما ما الشّيخ أبو الزّهر الربيع الأنصاري إلى والدته ليشكو لها ضِيق حاله فأعطته رسما لدار أبيه كانت قد سلبت منها وأرادت أن يستعيدها فاستفتى في ذلك فقهاء الدنيا فأذنوا له في ذلك، وكان يود أن يستفتي فقهاء

---

[1] المدونة، ص14،15.

الآخرة، فقرر الذهاب إلى الشيخ أبي مدين شعيب ليستأذنه في ذلك فوجده في مسجد زكريّا الزواوي في بجاية، فسأله مراده، فأجابه الشيخ بأن يستفتي ربّه ثم قاما إلى الصلاة، وكانت صلاة الصبح، «فلما كان أبو الزّهر في الركعة الثانية سمع صوت يقول :أطلب حقا واجبا أطلب حقا واجبا ، وعند اتمام الصلاة سأله الشيخ أبو مدين : هل أفتاك ربّك؟ فأجابه أبو الزّهر :نعم أفتاني يا سيدي»[1]، وهذه الأخيرة إحدى كرّامات الشّيخ أبي مدين ومكاشفاته حيث لم يجيب الشيخ أبو الزهر وإنما ترك الإجابة من الله تعالى لكي يسمعها بأذنه ويقتنع بذلك بعد أن استفتى جميع فقهاء الدّنيا وأذنوا له بذلك وكانت الإجابة من الله تعالى حيث سمع صوتا يقول :اطلب حقا واجبا أي أن يطلب حقه وهذا ما يحصل للولّي الصالح من علوم ومكاشفات بأن يكشف له من العلوم ما لا يحصل لغيره.

ومن كرّاماته أيضا أنه تحدث «عن رجل سميّ موسى وأنّه يطير في الهواء ويمشي على الماء حيث رأوه مرة وهو يصلي الفجر على البحر، وكيف أن هذا الرجل جاء أبي مدين مسافرا من بلاد إلى أخرى بين صلاة وصلاة صلاها ببغداد إلى مكة وصولا إلى القدّس»، [2] إنما هذه الخوارق تشبه معجزات الأنبياء، لقصّة الرّسول عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعرّاج وكذلك قصّة سيّدنا موسى عليه السلام وهنا تشابه حتى في الاسم وكذلك قصته لما انشق البحر ليلا وسار في البحر فوق العصا وسلّم هو ومن تبعه من فرعون وجنوده ونجى من الغرق في البحر كذلك الشيخ يصلي على البحر ولم يغرق.

ومن كرامات الشّيخ أبي مدين قصة وفاته لمّا ذاع صيته بعث له السلطان بجاية فاشترط عليه أن يحمل خير محمل ولمّا سمع إخوانه وأصحابه ذلك خشي عليه

---

[1] المدونة، ص101،102

[2] المصدر نفسه، ص100.

وأَن يكون وراء ذلك مكيدة، فأخبرهم بأن يطمئنوا فهو لم يلتق بالسلطان ولن يرّاه فقال لهم :«شعيب شيخ كبير ضعيف لا قوة له على المشيّ ومنّيته قُدرت بغير مكان ولابد من الوصول على موضوع المنّية، فقُدر لي من يحملني إلى مكان الدّفن برفق يسوقني إلى مرّام المقادير أحسن سوق والقوم لا أراهم ولا يروني» ، ومن ذلك ارتحل به إلى أن وصل إلى تلمسان ولما وصل العبَّاد قال لرفقائه :"مليح للرقاد" وقال بعضهم أنه قال : «لا بأس بالنوم في هذا المكان فنزل بها وتوفي بعبَّاد ودفن بها»[1]، فكرّامة تجلت في تنبؤ الشيخ بوفاته ومكان الدّفن وأن رّحلته هذه إلى بجاية من آخر ما تبقى من عمره وأنّه سيحمل إلى موضع دفنه فأشترط أن يحمل أحسن محمل ويحمل برفق ولين.

وهذه أشهر كرامات الشيخ أبي مدين شعيب الولّي الصالح الفقيه والمبارك الزّاهد الورع، وما ذكرنا إلا القليل مما ذُكر في الرّحلة كيف لا والرّحلة جاءت غنية بكرّاماته ومكاشفاته وهي في حقيقة الأمر ترّجمة لشّيخ أبي مدين والتعريف به وبأصحابه وإخوانه ومن كرّاماتهم نذكر ما يلي :

2- **كرامات الشيخ أبي يعزي شيخ أبي مدين :**

حيث جاء في الرّحلة أنه يسير فوق الماء ولا يصيبه بلل ولا يغرق وهذا ما ورد في الرّحلة فهناك من فنَّد ذلك وأبطله فجاء على لسانه ردا على ذلك في قوله :«ما لهؤلاء ينكرون الكرّامة والله لو كنت قُرب البحر لأريتهم المشيّ على الماء»[2].

كما اشتهر أبي يعزي بكراماته حيث قصده الكثير من الشّيوخ و شاهد على يديه العجيب والغريب ومن ذلك ما قال فيه أبو مدين شعيب تلميذه: «طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزي، وطالعت

---

[1] المدونة، ص103.

[2] المصدر نفسه، ص04.

كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للعزالى»[1]، وهذا لكثرة كرّاماته وأغربها فجاءت خارقة للعادة إلى درجة أن الشيوخ زمانه انبهروا به وعجبوا لأمره.

ذلك أبو مدين سمع عنه الكثير أيام إقامته بفاس «واتجه نحوه فنهره من الطعام كلّما جيئ به طيلة ثلاثة أيام فأجهده الجوع فعزم على أن يمسح بوجهه في مكان الشيخ إذا قام ففعل ذلك فعميّ وذهب بصره وبقي على تلك الحالة ليلة كاملة باكيا وفي الصباح استدعاه الشيخ فمسح بيده على عينيّه فأبصر ومن ثمة غادر أبو مدين من حمية الشّيخ أبي يعزي فدله عند انصرافه ببعض الأمور التي ستواجهه في طريقه منها :[2] ترى الأسد يعتريك في الطريق لا تخاف منه، وإن خشيته فقل له :«بحرمة أبي يعزي اذهب عنى» ثم تجد ثلاث لصوص فعِّظْهم، فيتوب إثنان، أما الثالث فيعرض عن ذلك فيقتل ويصلب على الشجرة [3]،« وهذا ما حدث فعلا مع أبي مدين حيث لقي أسد وأقسم عليه بأبي يعزي، فحاد عن الطريق وتنحى جانبا ، أمّا الثالث فعاد إلى الشجرة فسمع به الولّاة وأخذوه وضُرب عنقه وصلب على تلك الشجرة.

وهذه من مكاشفات الشيخ أبي يعزي حيث تنبئ بما سيقع لأبي مدين وما يعترضه في الطريق كما زوده بما يقي به نفسه من شر ذلك وهذه من الأمور الغيبية التي تحدث إلا مع الأنبياء والأولياء الصالحين لشّدة تمسكهم بالله ورسوله وما جاء به واتباعه.

كذلك من كرّامات الشيخ أنّه كان ينادى الشيخ محمد بن يوسف الصنهاجي من مكان بعيد حيث يبعده مسيرة خمسة أيام فيسمعه ويجيبه، فتجلّت كرّامة أبي يعزي في سماع صوته وبلوغه مكان بعيد، فالنص التالي يدل على ذلك :«وكان الشيخ أبو يعزي

---

[1] المدونة، ص13.

[2] المصدر نفسه، ص15.

[3] المصدر نفسه، ص15،16.

يناديه من مكانه فيجيبه :نعم وبينهما مسيرة خمسة أيام، فعاتبه مرّة وقال له :« ناديتك مرات فلم تجبني إلا في الثالثة فاستغفر اللّه تعالى».[1]

وقال فيه ميمون التاروطي لمّا أقام عنده حضر جماعة من فاس وهم يشككون في صّدقه وانكار ذلك وما أنْ وصلوا إليه هجم الأسد على بهيمة من بهائمهم فصاح أبو يعزي عليه وجذبه من أذنه وقال لأصحابه :«اركبوه ففرو منه، فركبته أنا فكنت أحس بوره نفذ في ثوبي[2]»، وهذه إحدى كراماته حيث كان يكلّم الحيوانات وخاصة السباع ويرهبها فكانت تخشاه وتهابه إذا ضجر وغضب منها .كذلك من الحيوانات التي تأنس وتركن إليه الثور ومن ذلك الثور الذي يمسح عليه بيده ويقول له :أي صنيع يصنع به ؟ فقال التاودي وهو من رأى الثور الأسود يلحس بلسانه الشيخ أبي يعزي وقال التاودي بعد وفاة أبي يعزي ذُبح ذلك الثور وصنع للناس به الطعام»[3] .

ومن كرّاماته ايضا أنه كان مجيب الدعاء فكلما دعا ثبت وتحقق ذلك، حيث شكاه الناس ذات مرة احتباس المطر وعدم تساقطه فرمي بشاشيته وبقى رأسه أبيض ونظر ودعا اللّه بصيغة تذليل وتحقير لنفسه وتعظيم وإجلالا للّه تعالى، وقصده من ذلك مناجاة والتضرع للّه تعالى قائلا :«مالي هؤلاء القوم يطلبون مني المطر، وأنا عبدك الضعيف لا قدرة لي على فعل ذلك؟، ثم بكى فحدثت المعجزة أن أنزل الله المطر»[4]، ومن كرّاماته أنه كان مجاب الدعاء فاللّه يلبي دعائهم ويحقق ما قصدوه بدعائهم وذلك لصدق نيتهم وحسن ظنهم باللّه تعالى.

---

[1] المدونة، ص30.

[2] المصدر نفسه، ص22،23.

[3] المصدر نفسه، ص29.

[4] المصدر نفسه، ص23.

وإلى جانب ذلك تعددت واختلفت الكرّامات من شيخ إلى آخر فنقتصر على ذكر مجموعة من أمثلة لبعض الشيوخ التي وردت في ثنّايا الرحلة مع تبيان الهدف والغرض من ذلك:

من كرّاماتهم الرؤية في المنام خاصة رؤية الرّسول صلى اللّه عليه وسلم فمن ذلك رؤية الشيخ عبد الرحمان بن يوسف الحسني، من أهل البيت الكريم النبيّ صلى اللّه عليه وسلم في النوم «قال: فقلت: يا رسول اللّه ما تقول في السبتي ؟»وكنت سيئ الاعتقاد فيه قال :فقال لي بعد أن تبسم :هو من السباق، قال :فقلت :بين لي، يا رسول اللّه، قال:هو ممن يَمُر على الصراط كالبرق، قال :فخرجنا بعد الصبح فلقيني أبو العباس فقال لي: قل ما رأيت وما سمعت واللّه لا تركتك حتى تعرفني، فعرفته، فصاح وقال :كلمة الصفا من المصطفى» .[1]

ومن كرّاماتهم أيضا لإشفاء من المرض بدعائهم أو ملامستهم لموضع الألم وإبراء من يقصدهم من ذوي العلّل المزمنة والأمراض المستعصية التي لا ينفع معها العلاج الطبي، حيث ورد في هذا السياق قصة عبد اللّه التاودي «حينما كان في مجلس أبي يعزي جيء له برجل مقعد عن الحركة، فمازال يتفل عليه حتى قام.[2]»

كما ذكرنا سابقا اشتهر أبي يعزي بكرّاماته وهذه احدى كرّماته حيث شُفِيّ على يده رجل معاق حركيا، فما أن تفل عليه عدّة مرات قام الرجل يمشي، فسبحان من سّخر لعباده القدرة على ذلك، ومن ذلك حكاية الشيخ الصالح أبي تميم عبد الرحمان الهزميري « شفائه لأخت الشيخ الصالح أبي الحسن بن عبد الكريم من البرص والتي ظهر في وجهها وعجز عن مداواتها الأطباء، حيث جعل يمسح بريقه على موضع البرص المرة بعد المرة حتى ذهب البرص من وجهها تماما»[3]، فالحكايتين تحوي

---

[1] المدونة، ص 08،09.

[2] المصدر نفسه، ص 29.

[3] المصدر نفسه، ص31،32.

كرّامتين تمثلت في الشفاء من الأمراض المستعصية وكرّامة الدواء تمثلت في الريق أي بزاق الشيخ ومنه ترياق والشفاء وبركة للمرضى عند ملامسة ريق الوليّ للموضع المرض.

وهذا ما شاهده الرحّالة عندما حضر موسم اجتماع الطوائف بدّكالة، حيث حضره جمعا من الشيوخ والمريدين والفضلاء والأخيار وقصده من كل حدب وصوب أصحاب العلّل والأمراض المزمنة، والنص التالي يثبت ذلك وهو قول الرحّالة «ووردت عليهم أصحاب العلّل المزمنة كالمقعدين وغيرهم ورأيتهم يتزاحمون في حلق الذّكر والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسده كأنه يطلب قوته، فيقوم من يأخذ بيد المريض ويصرفه وقد رجعت إليه صحته، ومنهم من يضربه بطرف كسائه فيقوم كأنه حُلَّ من العُقال، ثم يختلط الرجل الذي يفعل ذلك بالقوم ولا يعرفه شخصه»[1]، فتجلت كّرامات الشيوخ هنا في شفاء المرضي من تلك الأمراض وتخليصهم من الآلام والمعاناة، ومنه فالرّحلة تنطوي على العديد من حكايات الأوليّاء والتي هي نماذج قدمها الرحّالة في شكل قصصي وتحدث عن ذلك مطولا حيث كلما تحدث عن ولّي إلا وذكر أهم الكرامات والفراسات التي ظهرت عنده ولذلك اقتصرنا على ذكر البعض منها خاصة لدى أبي مدين وشيخه أبي يعزي اللّذان اشتهر بكرّاماتهم وكذلك بعض الشيوخ الذين تحدث عنهم الرحّالة وما ذكرنا إلا القليل من ما ظهر عندهم من عجيب والغريب وغير مألوف، فمنهم من رأى الرسول في منامه كما ذكرنا سابقا ومنهم من خصّه اللّه بتنبؤ، حيث يتنبأ الشيخ أو الولّي بمجيء الزائر قبل قدومه أو رؤيته من مكان بعيد وسماع صوته، ومنهم من شُفيت على يده الكثير من المرضى والمقعدين، ومنهم من تُسقى الأرض بدعائه أو بحلوله مكان ما وتسقط الأمطار بعد احتباسها مدّة طويلة أو البكاء عند الدعاء بذلك، وايضا من يقصدهم من الناس لنيل بركاتهم ودعائهم وانتفاع

[1] المدونة، ص 72.

الكثير خاصة من تتلمذ على أيديهم وهذا كان هدف الرحّالة وهو ملاقاة الشيوخ والتبرك بهم والتماس دعائهم.

ومنهم من تحل الأمراض والأوبئة بالمنطقة نتيجة غضبه من سلطانها أو أهلها، ومن كرماتهم ايضا من كان يمشي على الماء ومن يطير في الهواء من أمثال أيوب بن سعيد الصنهاجي، كما ذكر الرحّالة أنه سمع خلال رحلته من يكلّم الحيوانات ويداعبها كأبي يعزي الذي كان يكلّم الأسد ويرهبه

كما تحدث ايضا عن بعض الشيوخ ما أن آذاهم أو تعرض لهم أحد أو أنكر وأبطل ما ظهر على أيديهم يُؤْذى بالمثل أو أشّدو وفي هذا السياق نذكر قصة «سجن ابن بطان أحد عشر يوما وخرج لزّيارة الصّالحين وأول من رآه منهم سأله كم سجنك؟ فقال أحد عشر يوما فقال أنا اسجنه أحد عشر سنة وكان ذلك فعلا»[1]، وايضا من مكتشفاتهم ومعرفتهم بأمور الغيب وما يدور بذهن السائل وفي هذا السياق نورد قصة الطالب الذي يحمل المال الذي أعطى له دون علم الشّيخ وعدم رضاه بذلك فأمره بإرجاعه من حيث جيء به.

2- ترجمة للشيوخ المتصوفة:

قصد الرحّالة بلاد المغرب من أجل لقاء الشيوخ والعلماء وتقصى أثارهم وتتبع حياتهم، فجاءت رحلته هذه ترجمة لتلك الشيوخ ورجال التصوف الذين التقى بهم وسمع عنهم فأخذ عنهم العلوم واستزاد بهم وانتفع بذلك، كما نال برّكاتهم وكسب رضاهم ودعائهم وسهلت عليه أمور بسببهم، كما تحدث مطولا عن الشيخ أبي مدين شعيب وتطرق إلى إخوانه وأصحابه وتلاميذه، وعلى نحو ذلك نذكر بعض الشيوخ من جملة الشيوخ التي ذكرها ابن قنفد ونبدأ بجوهر الرّحلة:

---

[1] المدونة، ص88.

1- الشيخ أبي مدين شعيب:

من أشهر أوليّاء الصالحين بالمغرب الأقصى، «وهو شعيب بن حسين الأنصاري الأصل من أحواز اشبيلية»[1]، اشتهر بمعرفته ودرايته لمختلف العلوم والمعارف من فقه وحديث وسنن وتفسير...،من الأندلس عُرِفَ بشِّدة زّهده وورعه وعبادته وتمسكه باللّه تعالى، نشأ بعائلة فقيرة حيث كان راعيّا للغنم وبعد أنْ رأى في نفسه عزيمة وقوة فر من الأندلس إلى المغرب سعيا إلى ما يصبوا إليه وهو طلب العلم والاشتغال به، والنهل منه والاجتهاد فيه وتحصيل المعارف وهذا ما جاء في كتاب التشوف «حيث كان زاهداً في الدّنيا عارفا باللّه تعالى خاض من الأحوال بحاراً ونال من المعارف أسراراً فكان له بسط وقبض، بسطه بالعلم وقبضه بالمراقبة[2] « استقر أعواما بفاس من أجل ذلك ثم ارتحل إلى بقاع المقدّسة وغايته من ذلك أداء فريضة الحجّ كذلك لقاء شيوخ المشرق والتعرف على علومها والأخذ عنهم ونيل بركاتهم تفقه في علوم، فحصل مبتغاه وصار عالم العلماء، وكبير الفقهاء وشيخ المشايخ كما سميّ ذلك لظهور ألف شيخ على يده وكلهم من تلاميذه، كان كثير الكرامات وأغربها وذكرنا هذا في باب الكرّامات بالتفصيل، أما عن وفاته فكانت أثناء توجهه إلى بجاية بأمر من السلطان بطلوعه من بجاية فوافته المنّية يقال بواد يُسيّر قُرب تلمسان « دفن بمنطقة العُبّاد بأحواز تلمسان سنة أربع وتسعون وخمسمائة للهجرية بعبّاد وقبره معهود مشهور»[3] يقصده الناس من كل فج قصد التبرك به والتضرع له رغبة في تلبية حاجاتهم، جمع عنه ابن قنفد الكثير من أخبار وأحوال عنه وذلك ما جاء على لسان الشيوخ والأوليّاء الصالحين الذين اتصل بهم الرحّالة شخصيا لمعرفة أخبار أبى مدين،

---

[1] المدونة، ص11.

[2] أبي يعقوب يوسف بن تحي التادلي : التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية بالرباط. ط1، 1984، ص319.

[3] المصدر السابق، ص103 104.

كما زار الرحّالة قبره عديد من المرات منها زاره لتيسر الانتقال في عام الوباء قصد الحفظ والصون في الطريق أثناء عودته من المغرب إلى قسنطينة فحدث ذلك ووصل بسلام .

2- أشياخ أبي مدين شعيب :

نهل الشيخ عن الكثير من الشيوخ والعلماء وانتفع بعلومهم وآدابهم ومن ذلك :

- **الشيخ أبي يعزي:**

من أشياخ أبي مدين وكبار فقهاء المغرب، «وهو أبي يعزي يلنّور بن عبد اللّه، قيل من هزميرة * ايروجان وقيل من بنى صبيح من هسكورة»[1]، كان أُجوبة زمانه، عُرِف بكرمه وجوده خاصة في الطعام، خادم الأربعين وليّ من أوليّاء اللّه ونال برّكتهم، كثير الكرّامات كما ذكرنا سابقا منها حديثه مع الأسد وطاعته له ودعائه المستجاب وكان أمره كله غريب عجيب، لازمه أبي مدين طيلة إقامته بالمغرب فأخذ عنه الكثير كما سلك طريقه في التصوف إلى أن حقق مبتغاه ونال رضاه، توفي عن عمر يناهز «ثلاثين ومئة سنة ودُفن بجبل ايروجان في أول شهر شوال عام اثنين وسبعين وخمسمائة وكان قطب عهده وأُعجوبة دهره».[2]

- **الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل بن حرزهم :**

من أهل فاس ومن كبار الفقهاء والصالحين والزّهاد بالمغرب الأقصى وأحد شيوخ أبي مدين، اشتهر بالكرامات والفراسات، أخذ عنه أبي مدين العلوم فثبت ذلك في قلبه خلاف لبقية العلماء لأن كلامه صادق نابع من جوف القلب، فلازمه أبي مدين وأخذ عنه علم التصوف وغرس فيه صفة الصبر والتحّمل على الشدائد، كما عرض عليه

هزميرة: أصلها أزمرن و هي الأكباش و كانو قبيلة من المصامدة، استوطنوا بين سوار مراكش و ركراكة و منهم فرقة ادوا ويزنر، و المقصود هنا فرقة تسمى بهزميرة في محل دفن أبي يعزي.

[1] أبي يعقوب يوسف بن تحي التادلي : التشوق إلى رجال التصوف، ص 213،214.

[2] المرجع نفسه، ص 213،214.

كتاب الرعاية للمحاسبي وشرحه له وبسط فيه، «توفي في أواخر شعبان من عام تسعة وخمسين وخمسمائة ودفن خارج باب الفتوح من أبواب فاس»[1]، زار قبره الرحّالة أيام إقامته بالمغرب وتبرك به عّدة مرات.

- **الشيخ أبو عبداللّه الدقاق:**

شيخ أبي مدين من أهل سجلّماسة من كبار المتصوفة بالمغرب، أول من أخذ عنه أبي مدين العلوم خاصة علم التصوف كما كان يفتخر بذلك، كان كثير التردد من سجلّماسة إلى فاس لحضور مجالس العلماء والفقهاء، «قيل أنه كان شّمس عصره».[2]

- **أبو الحسن أبي غالب :**

من أشياخ أبي مدين هو «أبو الحسن علي بن خلف غالب القريشي، نشأ بشلب وقرأ بقرطبة واستقر أخيرا بقصر كتّامة وشيخه في طريقة التصوف بن العريف[3]»، استقر بفاس مدّة طويلة حتى أصبح فقيه بها، فسعى أبي مدين لملاقاته وتم ذلك فأخذ عنه الكثير من العلوم والآداب خاصة ما تعلق بعلمي الحديث والتفسير، كما عرض كتاب السنن لأبي عيسى الترميذي عنه، وكانت وفاته عام «ثمانية وستين وخمسمائة ويقال عام ثلاثة وسبعين».[4]

3-إخوان أبي مدين شعيب :

فكان لأبي مدين إخوان كثيرون أخذ عنهم ونهل منهم الكثير من المعارف والعلوم كما استقو ايضا من زاه المعرفي الذي لا يضاهيه فيه أحد من زمانه، وبذلك

---

[1] المدونة، ص13،14.

[2] أبي يعقوب يوسف بن تحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص156.

[3] المرجع نفسه، ص288.

[4] المرجع نفسه، ص288.

انتفع بهم وانتفع بعلومه وآدابه...سنذكر نموذجين أو ثلاث لإخوان الشيخ ففي رحلته ذُكر اح ى عشرة من إخوان ابي م ين، ونحن نقتصر على ذكر القليل منهم فقط :

- **الشيخ أبو زكريا يحي الزواوي :**

هو الشيخ الشهير« أبو زكريا يحي بن أبي علي الزواوي من إخوان الشيخ أبي مدين من أهل أمسيون* خارج مدينة بجاية»[1]، اشتهر بعلمه وصلاحه وزهده الشّديد في الدنيا، قيل له مجلس بجامع بجاية يقرئ عليه العلم والتفسير والحديث، شديد الخوف من اللّه تعالى حريص التذكير والتحذير لناس من جهنّم وعذابها وأهوال يوم القيامة، «حتى قيل أنه في مجلس اقرائه النّار وحرها وشرها سأله بعض الطلبة بأن يحدثهم عن الجّنة فصاح حتى غشيّ عليه وقال لهم :متى خرجنا من النّار حتى ندخل الجّنة»[2] ، رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه وفقهائه ثم عاد إلى المغرب وكان إذا أهل رجب انقطع في جبل رجراجة إلى أن ينصرم شهر رمضان، «توفي بعد صلاة العصر من يوم الجمعة منتصف رمضان عام أحد عشر وستمائة مدفون خارج بجاية».[3]

***الشيخ أبو عبد اللّه التاودي :**

من أهل فاس وفقهائها ومن إخوان أبي مدين لازمه طويلا وأخذ عنه العلوم وانتفع بها كان يلقن القرآن لصبيان ويأخذ الأجرة من أولاد الأغنياء ويتصدق بها على أبناء الفقراء فكان دائم اللّطف بهم، «توفي في حدود سنة ثمانين وخمسمائة».[4]

---

* أمسيون : جبل من جمة شمال بجاية، سامي العلو صعب المرتقى، و أمسيون: معناه: العقبة النكداء.

[1] المدونة، ص27.

[2] المصدر نفسه، ص27.

[3] أبي يعقوب يوسف بن يحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص428.

[4] المصدر السابق، ص30

- **أبو الصبر أيوب بن اللّه الفهري السبّتي :**

من إخوان أبي مدين من «أهل سبتة وأمه من الصالحات قيل أنها تخبره بما يحصل له في غيابه[1]، عاشر فقهاء فاس وأصبح منهم، أخذ عنه أبي مدين وانتفع بعلومه قيل ألف كتّاب في تعريف بالشيخ أبي مدين ويذكر فضله، ارتحل إلى المشرق لملاقاة الشيوخ والعلماء ونهل العلوم واستزاد بها، «استشهد في واقعة العقاب منتصف شهر رمضان عام تسعة وستمائة».[2]

- **أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجّي :**

من إخوان أبي مدين ومن كبار الصالحين اشتهر بكرّاماته الغريبة، كان كثير الزّيارات لشيخ أبي يعزي للتماس بركته وانتفاع بعلومه، « حتى قيل أنه كان يناديه من موطنه فيسمعه وبينهما مسيرة خمسة أيام »[3]، لازمه أبي مدين وأخذ عنه، من بلاد تالاّ، توفي سنة ثمانية وستمائة ودفن بها» .[4]

- **أبو زكريا يحي بن صالح :**

« من أهل تاورجين من بلد هسكوة » خادم أبي يعزي ومن إخوان الشيخ أبي مدين كان شديد البكاء والخوف من اللّه تعالى، شديد العبادة خاصة بعد أن ابيضت عيناه وأصيب بالعمى ازداد عبادة وورعا وزهدا.

- **أبو تميم عبد الرحمان الهزميري :**

---

[1] أبي يعقوب يوسف بن يحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص415

[2] المرجع نفسه، ص416.

[3] المدونة، ص30

[4] أبي يعقوب يوسف بن يحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص403.

من كبار الصالحين شهير الكرّامات، من إخوان الشيخ أبي مدين، «حافظ للمسائل»[1]، من كرماته أنه يشفي المرضى ومن ذلك حكاية الفتاة المصابة بالبرص وشُفيت على يده.

- **الشيخة فاطمة الأندلسية :**

من أخوات الشيخ أبي مدين، من الصالحات المغرب «من أهل قصر كتامة».[2]

3- أصحاب الشيخ أبي مدين :

كما كان لأبي مدين إخوان كان له أصحاب رافقهم خلال حياته فكان يأوي إليهم أوقات فراغه، كما انتفع بصحبتهم وأخذ عنهم ونهل منه العلوم ولازمهم أيام إقامته بالمغرب الأقصى، كما استزادوا هم أيضا بعلومه وآدابه، وحادثهم، وحضر مجالس اقرائهم ومن ذلك نذكر منهم :

- **الشيخ أبو عمران موسى بن يدْرّاسن الحلاج :**

من أصحاب الشيخ أبي مدين من أوليّاء الصالحين كان حلاج للقطن بفاس، اشتهر بالعجائب من المكاشفات والغيبيات ولذلك «فر من المغرب واستقر ببجاية خوفا على نفسه »[3]، ممن التقى بالشيخ أبي مدين وحضر مجالس اقرائه العديد من المرات، وشكا إليه ما قساه من الناس.

- **الشيخ عبد اللّه محمد بن ابراهيم :**

من أصحاب الشيخ أبي مدين وكبار تلاميذه كان كثير الحديث عنه وعن رواياته، من أهل العلم والفقه والزّهد في الدنيا وصاحب مكاشفات وأمور الغيب، «نزل

---

[1] المدونة، ص31.

[2] أبي يعقوب يوسف بن يحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص331.

[3] أبي العباس أحمد الخطيب، أنس الفقير و عز الفقير، ص38.

بمدينة فاس وبها توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأول عام خمسة وتسعين وخمسمائة ودفن بعد صلاة الجمعة»[1] .

- **الشيخ أبو مسعود بن عريف:**

من أصحاب أبى مدين، من أهل تلمسان اشتهر بكرّامات وبركاته، كان مستجاب الدعاء، وهو شيخ جد الرّحالة للأم تتلمذ على يده وأخذ عنه العلوم والآداب والأخلاق، كما نال السلطان الشهير أمير المؤمنين بركاته وسماه المتوكل على اللّه كان كثير الذّكر، «حتى قيل أن كل شعرة تذكر اللّه بلسان فصيح، ولد في حدود الثلاثين وستمائة للهجري، توفي عام سبعة عشر وسبعمائة قبره بجبال الشلف يزّار ويتبرك به».[2]

- **أبو علي حسن بن الغافقي الصّواف :**

من أصحاب الشيخ أبي مدين رافقه وصاحبه طلية ثلاثين سنة ولم يبتعد عنه دقيقة، فكان كثير الحديث والروايات والأسرار التي تتعلق بالشيخ أبي مدين كما أخذ عنه وانتفع منه، فلازمه في رحلته من المغرب إلى بجاية وحضر وفاته وتحسر على موته.

4- بعض الشيوخ الذين التقى بهم الرّحالة أثناء رحلته :

كثيرا ما أشرنا إلى أن الغاية من رحلة بن قنفد هذه ملاقاة الشيوخ والعلماء والصلحاء شخصيا ومجّالستهم والحديث اليهم والانتفاع بعلومهم والاستزادة من ما مشاهدة كراماتهم وحضور مجالسهم وقد وفق في ذلك ومبتغاه بحضور اجتماع زمان توليه منصب القضاء بإقليم دكالة « اجتماع الفقراء وكان على ساحل البحر المحيط جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفيطر، وكان في شهر ربيع الأول المبارك سنة تسع وستين وسبعمائة »[3]، وأهم ما ميّز هذا الاجتماع حضور حشد كبير من

---

[1] أبي يعقوب يوسف بن يحي التدلي: التشوق الى رجال التصوف، ص332.

[2] المدونة ، ص40.

[3] المصدر نفسه، ص40.

الأخيار والفضلاء والعلماء والزّهاد والصلحاء وهنا التقى بهم بن قنفذ واستغرب من عددهم الكبير ومن ذلك الحشد الذي اجتمع حولهم من أصحاب العلّل المزمنة وكل من به عاهة أو مرض لم يُشّفى منه طمعا في الشّفاء وطلبا لطهر من الأمراض والعلّل ومن ذلك قول الرّحالة :«وردت عليهم أصحاب العلّل المزمنة كالمقعدين وغيرهم رأيتهم يتزاحمون في حلق الذّكر والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسّده كأنه يطلب قوته»[1].

وما أدهش واستغرب لأمره الرّحالة توَسل وتضرع المرضى والمصابين للأوليّاء بغيّة الشّفاء وحصل ذلك بفعل، وما أن يقوم الوليّ من مكانه أو يمسح على المريض بطرف ثوبه إلا وشُفيّ من سقمه، وفي هذا الاجتماع لقي بن قنفذ الكثير من الفضلاء والأخيار والعلماء والأولياء الصالحين وذكر بعضهم في رِّحلته هذه وسنورد بعض الأسماء كمثال عن ذلك، وسنكتفي بذكر القليل فقط.

أ- **اجتماع دكالة :**

- **الشيخ أبى الحسن بن يوسف الصّنهاجي من آيت محبوب :**

من الصالحين والعارفين بعلوم التلقين، شدّيد البكاء خاصة عند سماعه آية أو حديث أو كلمة صوفية، أو بيت شعري، لقيه بن قنفذ في هذا الاجتماع ونال مباركته وهو فخور بذلك، حضر مجلسه أكثر من مرة ونال بركاته وحصل دعائه ولطف منه، حيث قال في هذا :« وكان إذا رآني، وقف وضمني إلى صدره ويجيل بيده المباركة على ظهري ويبكى حتى يخاف عليه ولا يطلقني إلا بعد ساعة »[2].

---

[1] المدونة ، ص71.

[2] المصدر نفسه، ص72.

ب- بمدينة فاس :

- **المرأة الصالحة المؤمنة:**

رآها الرحّالة ولقيها أثناء اجتماع الفقراء وتبرك بها والتمس دعائها حتى في غيابه وحضيّ بمكانة خاصة في قلبها، وفي هذه القصة عبرة لذلك حين قال الرحّالة أنه قصدها في وقت انقطاعها من الناس، فوافقت وكلّمته لكن منعته من الدخول وقالت له: « لولا مكانتك عندي يا أحمد ما كلّمتك وما فعلته مع غيرك »[1].

وانتفع الرحّالة بملاقاتها والحديث إليها وأخذ منها الآداب والأخلاق وذلك من خلال معاملتها له، عُرفت بزّهدها الشّديد وورعها، كثيرة العبّادة والتقشف ومن آدابها أنّها لا تقبل شيء ولا تأكل من أحد، تقتات بما تصنع يديها، قليلة الظهور للنّاس، كثيرة الانقطاع، اشتهت الموت بعبّاد بتلمسان وتحقق ذلك وتوفيّة بها.

- **الشيخ أبي علي الرّجرّاجي:**

من كبار العلماء والأوليّاء الصالحين بالمغرب اشتهر بالعلم والصلاح، لازمه بن قنفذ أثناء إقامته بالمغرب وعرض عليه كتاب «الحوفي في الفرائض»، حضر معه الكثير من مجالس العلم وانتفع به، قصده كثيرا خاصة مما تعسّر فهمه، عُرف بسطه وتواضعه حتى قيل :«إنه كان يجلس بن قنفذ على السّارية ويجلس هو بين يديه كأنه هو السائل»[2]، ذلك من شدّة انبساطه وتواضعه، دائم الخلّوة، عمل على تغيير وتحويل المنكر في زمانه ومنّه اللّه أُناس يعّينونه على ذلك وتحقق بفعل، كان ممن يتفقد أمر القضاة وأصحاب الأحباس، سخّر اللّه له طاعة العبّاد لا بالقوة وإنّما بترهيب والخوف من اللّه فخافه العِباد في اللّه.

---

[1] المدونة ، ص72.

[2] المصدر نفسه، ص71.

ج- مدينة سلّا:

- **الحاج عبد الغني :**

لقيه الرّحالة بمدينة سلّا أين زار زاويته وسلّمه مفتاح خزانتها واطلع على كتبه وتكرم بدعائه واغتنم لقائه ونال بركته، خادم للفضلاء والصّلاح الذين يقصدون زاويته التي تقرب من الجامع الأعظم [1].

- **الشيخ أبو الحسن بن أيوب :**

شهد الرحّالة بمدينة سلّا، فزاره وتمتع ببرّكاته، حافظ لكتاب اللّه وملقن له، ومن بركاته أنّه «قصده يوم رجل يعاني آلام في بطنه وبن قنفذ في حضرته، فشاهده يمسح بيده المباركة على بطنه، وحرك فمه بكلمات فشُفي المريض بقدرة من اللّه وبركته»[2]، هذه في مصاف بركاته التي لا تُعدّ ولا تحصى، فنجد الرحّالة التمس دعائه أثناء إقامته .

د- بالمغرب الأقصى :

- **عزيزة السَّكْسَاوية :**

« من جبال درن بموضع يقال له القاهرة »[3]، من أعظم صالحات مغرب الأقصى لقيها الرحّالة وهي في وجهة صلح بين فئتين متخاصمتين فجلس إليها وتحدث معها ونال بركتها، اشتهرت بفصاحة اللّسان وقوة البرهان ولين الكلام في السؤال عن الحال، لا يراها أحد في حين تجتمع الناس من حولها لتبرك بها واحتفاء بدعائها.

- **الشيخ أبي محمد عبد اللّه الصنهاجي :**

لقيه الرحّالة بالمغرب الأقصى من الصالحين والمباركين أيام زمانه، خدم الفضلاء ونال بركاتهم والتمس دعائهم حتى نال مقاماً يضاهيهم، زاره بن قنفذ وسأله

---

(1) المدونة ، ص84.

(2) المصدر نفسه، ص84.

(3) المصدر نفسه، ص86.

عن حكاية سجنه المشهورة فحكى له ما حدث حيث « سجنه بن بطّان احدى عشرة يوماً وأطلق سراحه والتقى برجل سأله وأخبره فقال له أنا أسجنه إحدى عشرة سنة وبفعل جاء قرار من السلطان المرينيي يأمر بسجن بن بطّان إحدى عشرة سنة »[1]، كما قيل له الرجل الصالح.

جدّ الرحالة:

- **يعقوب بن عمران البيوسقي:**

جد الرحّالة من الأم تتلمذ على يد الشيخ أبو مسعود بن عريف لازمه في صغره وأخذ عنه الأخلاق الفاضلة، كما انتفع به واستزاد بعلومه، وبعد ذلك أقام لنفسه زاويته وبها دفن حيث أبيه، ومن ذلك قول الرحّالة «ارتحل إليه في صغره فأدبه وهذبه وأحسن تربيته وقربه وانتفع بعلومه وأمره بانصراف إلى وطنه»[2]، عرف بكرامات كثيرة من بينها: دعوته حتى يُشفى المريض، انتفع حفيده بن قنفذ بعلومه «كانت ولادته عام ثمانين وستمائة، ووفاته في أربعة وستين وسبعمائة» [3]، وهو على أُهبة صلاة العصر يمسح بيده على حج، حضر يوم وفاته حشد عظيم من الناس، أما عن زوجته والتي هي جدّة الرحالة فلم تعمّر طويلا وافتها المنية بعد وفاته بشهرين، عُرف باستقامته حتى في حياته الزوجيّة، كما اشتهر بتسهيل الأمور منها :«إفشاء السلام، إطعام الطعام، والصلاة باللّيل والناس نيام[4]، كما كسب محبة واحترام الأمراء فكان لا يرد له طلبا كلّما أراد شيء ومثال عن ذلك » :لمّا كتب لأمير منهم في اطلاق صراح مسجون، اطلق كل من في السجن، والسبب في ذلك ليانته وطريقة تعبيره عن حاجته، من ذلك تخصيصه للأمير بالسيادة، كما اشتهر بالجّود والكرم حتى قيل أنه في مرضه وزعه

---

(1) المدونة، ص84.

(2) المصدر نفسه، ص40.

(3) المصدر نفسه، ص43.

(4) المصدر نفسه، ص44.

كل أمواله على المحتاجين من أهله ومن يعرفهم ولم يبقى له إلا ما يستر جسده كما قيل وبعد أن شُفي من مرضه لم يرد من ذلك دينارا.

وتتلمذ على يده العديد من بينهم :

- **أبوعبد اللّه محمد بن أبي محمد عبد اللّه الصفار:**

الوليّ الصالح الفقيه المبارك لازمه الرحّالة في صغره ونال بركته، اشتهر هذا الأخير بكراماته وبركاته، خصّه والد الرحّالة لبناته يُلقنهم القرآن الكريم وذلك لما رآه منه من حسن الأخلاق وهذا ما جاء في رحلته على لسان احدى أخواتي بن قنفذ « ما رأيته رفع بصره يوما قط، وما سمعنا منه كلمة في غير التعليم، وإذا قرّبنا له طعاما يفطر عليه :تارة يقبله وتارة يرده»[1]، أعجب بشيخه كثيرا وذلك من خلال حديثه المتكرر عنه، كثير الاهتمام بشؤون الناس يتوسط لهم مع السلطان، «وكانت وفاته عام تسعة وأربعين وسبعمائة»[2]، قبره بأزمور داخل المسجد الذي كان دائم الصلاة به بقسنطينة وقبره يزار ويتبرك به.

- **الخطيب حسن بن الخطيب علي بن اللّمعة:**

من تلاميذ الشيخ يعقوب بن عمران البويسفي، زوج ابنته ووالد الرحّالة بن قنفذ، لازم شيخه وأخذ عنه العلوم وسلك منهجه وطريقته في التدريس حيث اشتغل بعلم، كانت ولادته عام «أربعة وتسعين وستمائة ووفاته عام خمسين وسبعمائة، في عام الوباء»[3]، ترك الكثير من كتب الفقه كانت زادا وفير لأهل العلم وترك وصية ونفذت بعد وفاته وهي أن ترجع البغلة التي اعطيت له أيام السلطان أبى الحسن المرينيي ليمتطيها.

- **الشيخ أبو الهادي مصباح بن سعيد الصنهاجي :**

---

[1] المدونة، ص45،46.

[2] المصدر نفسه، ص46.

[3] المصدر نفسه، ص47.

من إخوان الشيخ يعقوب بن عمران البويسفي، فقيه وصالح، عُرف لدى العّامة عبد الهادي وكذلك "يَشُو"، اختلف في أصله منهم من قال أنه من المغرب ومنهم من قال أنه من عرب برقة، حيث لهج لغتهم ونزل بالمغرب، عُرف بكثرة ارتحاله خاصة لبلاد افريقية واستقراره بقسنطينة وبها أقام زاوية باسمه ودّفن بها، كان غير محبوب لدى الفقهاء لكن مبجل لدى السلاطين وعامة الناس، اشتهر بكثرة الصلاة والذّكر حتى قيل «أنه يتكلم قليلا مع الزائر ثم يركع ركعتين ثم يعود إلى الكلام تارة وتارة إلى الصلاة»[1]، دائم السؤال عن أحوال والدي ووالدتي، بنت الشيخ كما ينعتها وكان صديق مقرب لجدّي للأم ومُحب له، «توفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة وسنه يشارف تسعين سنة بقسنطينة».[2]

- **الشيخ عبد اللّه محمد بن يحي الباهلي المسفر:**

من تلاميذ الشيخ أبي مدين ومن كبار أصحاب جدي للأم حيث لازمه وعاشره طويلا كان فقيه ومدرس ومفتى وقاض الجماعة ببجاية كما قيل فيه الرحالة، عُرف بليانته والخشوع إلى حد البكاء وكثرة الذّكر والتواضع خاصة مع تلاميذه وعامة الناس، له مؤلفات كثيرة من بينها :«قصيدة في معجزات سيد الأوائل والأواخر الرّسول صلى اللّه عليه وسلم، له شرح في أسماء اللّه الحسنى، ايضا له كلام عجيب في التصوف كما قيل له شعر فائق وخط رائق»[3]، ترك بعض الكتب التي تدل على جهده وفضله ومحبته في أهل الطريق، وحسن ونبل خلقه فجاءت لتدل على محبته للفقراء والرّفق بهم واللّين وبسط جناحه لهم وميل نفسه إليهم، «كانت وفاته سنة أربع وأربعين

---

[1] المدونة، ص50.

[2] المصدر نفسه، ص51،52.

[3] المصدر نفسه، ص54.

وسبعمائة هجري».[1]

3-في ذكر الأضرحة والمقابر:

شهد المغرب الأقصى انتشارًا واسعاً للتصوف فطيلة إقامة الرحالة وهو يسعى وراء المتصوفة والأوليّاء والشيوخ سواء الأحياء منهم أو الأموات، فجاءت رحلته شاملة للعديد من الأضرحة والمقابر الأوليّاء التي وقف عندها وتبرك بها، فنجده يؤكد على أن بركتهم جارية بعد وفاتهم ذلك أن الوليّ لا تنتهي بركته بانتهاء عمره، بل يصبح مزاراً بعد وفاته وقِبْلة كل محتاج، ويوضح ذلك في حديثه عن عدم انقطاع الكرامة بموت صاحبها ومثال ذلك إجابة أبو العباس أحمد بن العاشر الأندلسي لمّا سأله أحد الفقراء عن هذا الفضل فأنكر عليه سؤاله وقال» :"لا تنقطع الكرامة بالموت"، فأبو العباس هنا يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش، وما ظهرت عند قبره البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات »[2]، يذكر في هذا النطاق حكاية اليهودي والأمر الذي أصابه مع غير المسلمين قال اليهودي: « وحق ما أُنْزِل على موسى بن عمران أني ما أذكر لك إلا ما اتفق في قريب، وهو أني سريت باللّيل مع قافلة وبين يدي دابة، فعرجت لي وما شككت في قتّلي وسلب مالي، فجلست وبكيت و بيني وبين الناس بُعد فقلت :يا سيدي أبي العباس خاطرك قال لي :واللّه ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب ووقفوا وضَرَبْتُ دابتي وخَفّ عرجها، وزال واتصلت بالناس»[3]، وفي خضم ذلك ذكر الرحّالة مجموعة من القبور التي وقف عليها وسمع عنها أثناء إقامته بالمغرب الأقصى وأخذ بركاتهم ذلك أن المغرب بلد الشيوخ وقبور الأولياء الصالحين، «فمن بين كل البلدان الإسلامية يعتبر المغرب البلد

---

[1] المدونة، ص54.

[2] المصدر نفسه، ص07.

[3] المصدر نفسه، ص07.

الذي يبجل أكبر عدد من الأولياء فلا وجود مطلقا للهضاب لا يتوجها مزار وقليلة هي القرى أو المدن التي لا يوجد فيها ضريح أو أكثر»[1]، ومن القبور التي ذكرها في رحلة هذه نذكر ما يلى:

1- قبر الشيخ أبي مدين :

شيخ المشايخ، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، قبره بعبّاد بتلمسان زّاره الرِّحلة ووقف على قبره وتبرك به أكثر من مرة واختبره مرارًا ورأى في ذلك أسرار عجيبة والدعاء عند قبره مستجاب يقصدونه الناس لتبرك به من كل حدب وصوب، فوصف بن قنفذ قبر قائلا :«قبر الشيخ أبي مدين رضى اللّه عنه، بالعبّاد معهود مشهور، وحوض للزائرين رأيت من قبور الأوليّاء كثيرا من تونس إلى مغرب الشّمس ومنتهى بلد آسفي فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان والدعاء عنده مستجاب»[2]، وقصده الرحّالة لتيسير الانتقال والحفظ والصون في طريقه من المغرب إلى قسنطينة في عام المجاعة وحدثت المعجزة في الطريق حيث تحولت أشياء كثيرة من شّر إلى خير وذلك بفضل بركة الشيخ أبي مدين.

2- قبر بن العاشر :

هو الشيخ «الحاج الزّاهد الورع الصالح أبو العباس أحمد بن العاشر الأندلسي من مدينة سلّا ولد بها ودفن بها»[3]، اجتمع به بن قنفذ وطلب منه الدعاء فلقي منه المعاملة الحسنة حتى تعجب الحاضرون من ذلك، عُرف عنه نفوره من الناس، زار بن قنفذ قبره ووقف عليه مرارًا وتكرار ونال بركته .

---

[1] جميلة روباش: أدب الرحلة في المغرب العربي، ص118.

[2] أبي العباس أحمد الخطيب: انس الفقير وعز الحقير، ص105.

[3] المصدر نفسه، ص09.

3- قبر بن حرزهم :

من كبار الفقهاء، اشتهر بكراماته، نشأ بفاس ودفن بها وكانت وفاته «في عام تسعة وخمسين وخمسمائة للهجري، دفن خارج باب الفتوح من أبواب فاس»[1].

فاشتهر بكراماته وبركاته لذلك زاره بن قنفذ زمان إقامته بالمغرب، حيث كانت أول زيارة لقبره «عام تسعة وخمسين وسبعمائة وللوقوف على قبره بركات»[2].

4- قبر الوليّ أبي الفضل قاسم القرطبي:

من كبار الصّالحين والأوليّاء و المكاشفين، « قبره محاذة قبر أبي زكريا الزواوي»[3]، لما زار الرّحالة قبر الشيخ أبى زكريّا الزواوي تبرك بالقبرين شيخين ووقف عليها .

5- قبر الشيخ أبي تميم عبد الرّحمان الهزميري:

من شيوخ المغرب وفضلائها وأخيارها، زار بن قنفذ ونال بركته، وقبره « قريب من مكناسة الزيتون »[4].

6- قبر الشيخ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرّحمان الإشبيلي:

من أصحاب أبي مدين فقيه، ومحدث، حافظ للأحكام الكبّرى والصغّرى في الحديث والعاقبة في التذكير« قبره ببجاية المحروسة خارج باب المرسى، كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة ووفاته عام اثنين وثمانين وخمسمائة »[5].

7-**القاضي أبي بكر بن العربي:**

---

(1) المدونة، ص13.

(2) المصدر نفسه، ص14.

(3) المصدر نفسه، ص28.

(4) المصدر نفسه، ص31.

(5) المصدر نفسه، ص34.

توفى بن عربي « بمغيلة ودفن بفاس عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة من فقهاء وعلماء فاس، قبره بين مدينتين فاس القديم وفاس الجديد»[1]، وقبره يعتبر مزارا يأتيه الناس لتبرك به والتماس الدعاء، فالرحّالة ايضا وقف على قبر بن العربي وتبرك به وانتفع به.

8-قبر أبي شعيب أزمور :

من أشياخ الشيخ أبي مدين من «بلد أزمور بصنهاجة»[2]، اشتهر بكراماته العجيبة من بينها أنه يطير في الهواء، عُرف «بأيوب السارية»[3] ذلك أنه كلّما قام إلى الصلاة انتصب كالسارية وغاب عنه وهو على تلك الحالة، دّفن خارج أزمور وقف عليه بن قنفذ وزاره وتبرك.

9-قبر الشيخ أبي محمد صالح :

اشتهر بكراماته وبركاته فنتفع كثير من الناس من يده، زار الرحّالة قبره «سنة ثلاث وستين وسبعمائة» [4]، ووقف عليه والتمس بركاته.

10-قبر أبي زكريّا يحي عمرو عبد العزيز:

شيخ طائفة الحاحيّون وهو أبي زكريّا يحي بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد اللّه بن يحي الحاحّي، قيل من آل بيت النبيّ الكريم، وقبره بتغزا من بلاد حاحة»[5]، فأراد بن قنفذ زيارة قبره، فلم يبقى إلا القليل فعاد ولم يقف على قبر الشيخ وذلك لسبب لم يتم ذكره.

---

(1) المدونة، ص42.

(2) المصدر نفسه، ص28.

(3) المصدر نفسه، ص28.

(4) المصدر نفسه، ص61.

(5) المصدر نفسه، ص66.

11-قبر أبي يعزي:

أراد الرحّالة الوقوف على قبره، وبقي بينه وبين موضعه مسيرة نصف يوم فحال بينه وبين القبر الخوف من الطريق فعاد ولم يزره، «وقبره متواجد بتاغيّة جوفي تادلا» [1].

12-قبر عبد العزيز :

من الفقهاء والزّهاد في الدّنيا، «نزل بالأندلس واستقر بآغمات وقبره هناك».[2] زاره بن قنفذ ووقف عند قبره سنة ثلاث وستين وسبعمائة ولاحظ الرحّالة أمر الناس الذين يتزاحمون على قبره فعجب لأمرهم .

13-قبر بن تيجلات:

وقف الرحالة على قبره بآغمات، حيث استغرب من الحشود واكتظاظ الناس واجتماعهم حول قبره من أجل نيل بركاته والتماس لطفه وأخذ بن قنفذ بركاته.

3-**أهم الطوائف التى جاءت في الرحلة :**

وخلال هذه الرّحلة التي قام بها بن قنفذ بحثا عن الفضلاء والأخيار والصلحاء سواء الأحياء منهم والأموات وتطرق إلى كل عجيب ظهر على أيديهم في ما سمي بالكرّامات والمكاشفات، سأل عن مجموعة الطوائف التي سادت في تلك الفترة حيث كثرت خلالها أي خلال القرن الثامن للهجري التي كان يرتادها الطلبة والمريدين، فأحصاها بن قنفذ فوجدها متعددة في المغرب الأقصى حيث اختلفت هذه الطرق التي اتبعها المشايخ باختلاف مشاربهم وتربيتهم الروحية، فهناك من المشايخ من سلك طريق الشدّة في تربية المريدين ومنهم من سلك طريق اللّين ومنهم من اتخذ طريق

---

[1] المدونة، ص64.

[2] المصدر نفسه، ص24،25.

وسط بين الشّدة واللّين، ومن التعريفات التي وردت حول الطائفة وقد اصطلح عليها باصطلاحات عديدة منها الطريقة، نذكر في نطاق ذلك ما جاء في مجلة كلّية التربية «وتنتظم الطرق الصوفية على أساس وجود طقوس ينتظم على أساسها من يريد الانتماء لها، ويتكون هيكلها التنظيمي من شيخ الطريقة ومريدين، وهناك آداب وطقوس ضمن كل طريقة أساسها الذِّكر أي التسبيحات والأوراد الخاصة بكل طريقة، وخلّوات للتعبد، وغناء صوفي يسمى السمّاع، كما يصنف المتصوفة في الطرق بشكل هرمي يبدأ من الأعضاء الجدد، مرورا بشيوخ الطرق انتهاء بأقطابها، كماأن هناك أبواب عقائدية وروحية لمريدي الطرق الصوفية تسمى الأحوال والمقامات»[1]، من خلال هذا القول يتضح أن كل طائفة تستقل بذاتها عن باقي الطوائف الأخرى فهي تضم كل من يرغب الولوج في عالمها، وتتكون من شيخ الطريقة وهو مؤسسها والمريدون يتتلمذون على يد شيخها، ولكل طريقه أو طائفة آداب وقواعد تضبطها وعلى المريد اتباع ذلك القواعد وكل ما جاء به الشيخ وأمر به ويجتنب كل ما ينهو ويزجر عنه، ولكل طريقة أوراد وأذكار تتبعها.

أما عن جملة الطوائف التي جاءت في الرِّحلة فقد أحصاها الرحّالة وفق ستة طوائف نذكرها كالاتي:

1- **طائفة الشعيبون** :نسبة إلى الشيخ أبي شعيب أزمور من أشياخ أبي يعزي»[2].

2- **طائفة الحجاج** : « تضم إلا من حج بيت اللّه »[3]، وزار الرحّالة شيخها والتمس دعائه ولطفه وتَبرك ببركاته.

---

[1] فاهم نغمة الياسري، الأسمامات السياسية المتصوفة المغرب الاقصى في العصر الحديث مجلة كية التربية أواسط، قسم التاريخ، العدد الثاني عشر، ص159.

[2] المدونة، ص64.

[3] المصدر نفسه، ص64.

3- **طائفة الصنهاجيون** : ربما نسبة إلى «قبيلة صنهاجة جانب مصمودة وزناتة ويشكلون مجموعات القبليّة الكبرى في المغرب مواطنهم متفرقة والمقصودون هنا هم صنهاجة القبيلة أي الذين على السفح الجنوبي للأطلس الكبير الشرقي أو وراءه على تخوم الصحراء»[1]، وهذا ما جاء في الهامش من كتاب التشوف إلى رجال التصوف أي أنهم من قبيلة صنهاجة وهم «من بنى أمغار من بلد تنطنفيطر من أقران أبي شعيب»[2].

4- **طائفة الماجرّيون** : نسبة إلى «الشيخ أبي محمد صالح ومنهم الدّكاليون»[3]، والدّكاليون مجموعة من طائفة الماجرّيون من دّكالة وهي منطقة سهلة واسعة ما بين نهر أم ربيع شمالاووادي تانسيفت جنوبا ويظهر أنها تسمية قوم هو الدّكاليون أو إِيْدُوكَالَنْ وفيها إِدُّو بمعنى تحت أو أسفل أو إِدْ ومعناه أهل و أَكَالن معناها الأراضي أو الأطيان وتسامتها في المعنى تسمية فرقة مجاورة بحور مراكش كانت تسمى ادْرْكالن ومنهم من ذهب أن معنى دّكالة وهو المجتمعون أو الأصحاب»[4]، أين يقطنون وهم مجموعة طائفة الماجرّيون.

5- **طائفة الحاحيّون** : نسبة إلى الشيخ أبي زكريّا يحي بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد اللّه بن يحي الحاحّي، وقيل البعض منهم من جبل درن»[5]، والحاحّيون ربما سمي كذلك نسبة إلى قبيلة مشهورة كانت في عهد الموحدين وظلت القبيلة على هذه التسمية فترة من الزمن وهذا ما ورد في

---

(1) أبي يعقوب يوسف بن تحي التادلي : التشوق إلى رجال التصوف، ص98.

(2) المدونة، ص64.

(3) المصدر نفسه، ص64.

(4) أبي يعقوب يوسف بن تحي التادلي : التشوق إلى رجال التصوف، ص98.

(5) المدونة، ص64.

هامش كتاب التّشوف إلى رجال التصوف «حاحة قبيلة مصمودة شهيرة كانت في العهد الموحدي جنوبي موطن ركراكة وما يزال المستوطنين لهذه المنطقة نواحي. الصويرة .يسمون بهذا الاسم وإليهم انتسب عدد من الأعلام»[1]، كما سُمِيُّو كذلك بالحاحِّيون لنطق سكان المنطقة حرف «الخاء، حاء» ويقال أنها صيغة بربرّية ومن ذلك ما جاء في التّشوف في الهامش «واسمهم الأصلي ايحاحان وهو جمع، مفرد ايحيحي والراجح أنهم اتسموا بذلك لنطقهم «الخاء، حاء» والنسبة إليهم بالعربية ايحاحي نسبة إلى قبيلة حاحا، أمّا ايحيحي فصيغة بربرية يستحسن ألا تدخل عليها الألف واللام بل تترك على أصلها ايحيحي»[2]، كما كان أهل هذه الطائفة جل اهتمامهم مُنصَب على العلوم والفقه والتهذيب في الأخلاق والسلوك واتباع ما جاء في القرآن الكريم وتنفيذ ذلك، ولذلك لقي أبي زكريا شيخ الحاحيون قبولا واستحسان من الناس في زمانه واشتهر هو أيضا بلّينه ولطفه وحسن معاملته وكلامه «وعُرف الحاحيون بالتهذيب والفرائض والحساب ...وكان لأبي زكريا قبولا تاما عند الجمهور وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو وليّ» .[3]

6- **<u>طائفة الغماتيون</u>:** نسبة إلى «الشيخ الوليّ أبي زيد عبد الرّحمان الهزميري»[4]، حيث اشتهر بكراماته ومكاشفاته وكلّما رآه الناس تزاحموا عليه لنيل دعائه والانتفاع ببركاته حيث قيل أنه «كان أُعجوبة زمانه»[5]،

---

(1) المدونة، ص282.

(2) المصدر السابق، ص282.

(3) المصدر نفسه، ص64.

(4) المصدر نفسه، ص66.

(5) المصدر نفسه، ص66.

أما عن طائفته فكانت تربطها علاقة أخوة مع باقي الطوائف وهذا ما ميزها عن باقي الطوائف.

وهذه جملة الطوائف التي وردت في الرّحلة ووقف الرحّالة على بعض منها وجالس وحادث شيوخها ولازمهم ونال بركاتهم، كما زار قبور بعضهم كشيخ الطائفة الغامتيّة وتبرك به ، والملاحظ أن لكل طائفة شيخ يترأسها ومجموعة من الطلبة يطلق عليهم اسم المريدين، يتبعونه ويستزيدون بعلومه ومعارفه ويلتمسون لطفه ودعاءه وينالون بركته، فكل طائفة مستقلة بذاتها لا تربطها اي علاقة بباقي الطوائف ولها مكان خاص بها بعيدة عن أماكن الطوائف الأخرى، ما عدى طائفة أبي زيد عبد الرحمان الهزميري تربطها علاقة وطيدة علاقة أُخوة بباقي الطوائف الأخرى وهذا ما ورد على لسان الرحّالة.

خاتـــــــــــــــمة

خاتمة:

في خاتمة هذه الدّراسة نكون قد توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها في نقاط:

- تجلّت مظاهر التصّوف في رحلة ابن قنفذ القسنطيني خلال القرن الثامن للهجري بالمغرب الأقصى في ملاقاة الشيوخ والأوليّاء الصالحين والزّهاد والمنقطعين للأخذ عنهم والاستزادة بعلومهم والانتفاع بها وأخذ برّكاتهم.

- غلب على الرّحلة طابع العجيب و الغريب والذي تجلّى في الكرّامات والفرّاسات التي ظهرت لدى الأوليّاء الصالحين دليل على صدّقهم.

- غاية الرّحالة من ذلك رسم لوحة فنّية للحياة الصّوفية في ذلك العصر حيث انتشرت الزّوايا والرّبط والطرق الصّوفية في العصر المريني مما شجع على انتشار التصّوف بكثرة.

- وقوف الرحالة على العديد من القبور والأضرحة للتبرك بها قصد تسهيل الأمور مثلا.

- تقصى خلال رحلته هذه عن أهم الطوائف في ذلك الزّمان حيث أحصاها ستة طوائف ولكل طائفة شيخ يترأسها ومريدين يتبعونها.

- غلب عليها الطابع الصوفي لذلك يمكن اعتبارها في مصاف المصادر الصوفية.

- أهم ما ميز هذه الرّحلة أنّها جاءت للتعريف برجال التصّوف و الأوليّاء الصالحين خاصة الشيخ أبي مدين شعيب، تحدث عنه مطولا.

- دامت رحلته في بلاد المغرب ثماني عشرة سنة جاب خلالها ربوع المغرب الأقصى وكانت وجهته من قسنطينة إلى المغرب الأقصى والذي يعد بلد أوليّاء الله الصالحين .

قائمة المصادر

و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أ- القران الكريم:

رواية ورش عن نافع، تشرفت بطباعته الدار القيمة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 1،2014م.

ب- المصادر:

1- أبي العباس أحمد الخطيب الشهير ابن قنفذ القسنطيني: انس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة الخامس بكلية الآداب، الرباط،(د ط)،1965م

ت- المراجع:

1-إبراهيم القادري بوتشيش: الاسلام السري في المغرب العربي، دار سبتا للنشر، القاهرة،(د ط)، 1995

2-أبو حامد أحمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين، ج2، دار الكتب، بيروت، ط1 ، 1998.

3-أبو القاسم باكر جابر الجزائري، إلى التصوف يا عباد الله، دار البصيرة الاسكندرية، د ط .

4-أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار العرب الاسلامي، ط1، 1998.

5-أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، دار العرب الاسلامي، ط1، 1998.

6-أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمود السهروردي القرشي الصديقي البكري، أداب المريدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

7-أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي: التشوف إلي رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، (ط1)، 1984.

8-احسان الهي ظهير: التصوف في المنشأ و المصادر، دار ابن الحزم، القاهرة، ط1، 2008.

9- بوداوية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، (د ط).

10- بوعتو بشير: التصوف في الجزائر، دراسة وصفية تحليلة لطرق الحبيبية و الهبرية والرحمانية والأويسة، دار السبل و التوزيع، ج1، الجزائر، (د ط).

11- حسين نصار: ادب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العلمية لنشر و التوزيع، ط1،1991.

12- سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، الرؤية لنشر وتوزيع القاهرة، (د ط)، 2006.

13- سميرة أنساعد الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في نشأة وتطور والبنية، شركة دار الهدى للطباعة و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، (د ط).

14- صلاح العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها، نشاطها، دار البرق، لبنان، بيروت، (د ط).

15- الطاهر البونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنيين 6 و7 هـ/12 و13م، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، (د ط).

16- عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ العلامة ابن خلدون، مج1، ط2، بيروت، 1962.

17- عبد العزيز راس مال: الزوايا و الأصالة الجزائرية بين التاريخ و الواقع منشوارت ثالة، الأبيار، الجزائر، ج2، (د ط).

18- عبد الله حمودي: الشيخ و المريد، دار تو بقال للنشر، المغرب، ط3، 2003.

19- علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان بيروت، طبعة جديدة، 1985.

20- كاتب مجهول: الأنوار الربانية و الأضواء السنية عن الطريقة الرحمانية الخلوتية، (د ط)، الجزائر 2018.

21- محمد بن محمد المرصفي: داعي الفلاح إلى سبيل النجاح، (د ط)، (د ت).

22- محمد عبد الله: الفتح الرباطي،(د ط)، (د ت).

23- محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراكم الصوفي، مكتبة غريب، (د ط)،(د ت).

24- منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف الاسكندرية، (د ط)،(د ت).

25- نوار سامي محمد: الكامل في مصطلحات العمارة الاسلامية، من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء، مصر.

26- نوال عبد الرحمان شوابكة: أداب الرحلات الأندلسية والمغربية في نهاية القرن التاسع عشر، دار المكون للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008.

27- نور الهدى الكتاني: الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، (د ط)، (د ت).

28- يوسف محمد طه زيدان: الطريق الصوفي و فروعه القادرية بمصر، دار الجيل، بيروت ، ط1، 1991.

ث- <u>المعاجم :</u>

1-ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د ط)، مج3،مج4، ج4،ج11،ج22،ج27.

2-أبو الحسن بن فارس بن زكرياء: معجم مقايس اللغة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، (د ط)، (د ت) .

3-أيمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية دراسة تراثية مع شرح الاصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، دار القباؤ للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، (د ط)، (د ت).

4-محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، 1981 .

5-معجم الوسيط: مكتبة الشرق الدولية ، قام بإخراج هذه الطبعة شوقي ضيف اشراف شعبان عبد العاطي و آخرون، ط 4 ،2004 .

ج- <u>الرسائل الجامعية :</u>

1-احلام عثامنية: النزوع الديني في أدب الرحلات في القرن الثامن للهجرة ابن بطوطة و ابن قنفذ نموذجا، مذكرة مقدمة لنيل الماجيستير في الأدب القديم جامعة 8 ماي 1945، 2011، 2012 .

2-بوغديري كمال: الطرق الصوفية في الجزائر الطريقة التيجانية كنموذج رسالة دكتوراه، جامعة الدكتور محمد لمين دباغنين ، سطيف 2014، 2015 .

3-جمال عادل البختي: الحضور الصوفي في الاندلس و المغرب الى حدود القرن السابع للهجري دراسة تأريخيه و قراءة تحليلة في حواتن ابن خميس السبتي من التصوف و المتصوفة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2005 .

4-جميلة روباش: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة 2014، 2015 .

5-دحماني محمد: حكايات كرامات الاولياء في منطقة السلف، ماجستير في الأدب الشعبي كلية الآداب و اللغات، جامعة الجائر ، 2012، 2013 .

6-عبد الله بابا حدة: تمثل الاولياء الصالحين لدى المريدي الزوايا دراسة ميدانية شهادة ماستير، كلية علم الاجتماع، 2013، 2014.

ح- <u>المجلات :</u>

1-فاهم نعمة الياسري: الاسهامات السياسية لمتصوفة الغرب الاقصى في العصر الحديث مجلة كلية التربية- واسط قسم التاريخ العدد الثاني،عشر

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

تشكر وعرفان

اهداء

مقدمة.....أ

المدخل.....04

1- مفهوم التصوف.....05

2- مفهوم الرحلة.....07

3- تعريف الرحالة "ابن قنفذ القسنطيني".....10

4- مضمون الرحلة 12

فصل الأول.....16

1- نشأة أدب الرحلة بالجزائر.....17

2- نشأة التصوف في الجزائر و تطوره.....21

3- التصوف في عصر الرحالة.....27

4- مفهوم الكرامة.....28

5- مفهوم الشيخ.....30

سمات الشيخ 33

6- مفهوم المريد.....34

آداب المريد مع شيخه.....36

7- لمحة عن زيارة الأضرحة والمقابر.....38

فصل الثاني.....40

1- الكرامة الصوفية.....39

كرامة الصحابة.....39

كرامة الشيوخ.....41
2- ترجمة لشيوخ التصوف.....51
في ذكر الأضرحة و المقابر.....65
3- أهم الطوائف في الرحلة.....69
الخاتمة.....74
قائمة المصادر والمراجع.....77
فهرس الموضوعات.....83
الملخص.....86

الملخص:

يتناول الموضوع رحلة ابن قنفذ القسنطيني والموسوم ب:"انس الفقير وعز الحقير"، حيث كانت رحلته الى المغرب الاقصى موطن الأولياء والزهاد والمنقطعين وكان هدف الرحلة هو البحث عن رجال التصوف والسعي الى ملاقاتهم ومجالستهم والتبرك بهم سواء كانوا من الاحياء ام من الاموات ومن ذلك ان حركة التصوف شهدت انتشار واسعا خلال القرن الثامن للهجري، فكانت دراستنا هذه المحاولة الكشف عن مظاهر التصوف في هذه الرحلة وتجلياته.

Résumé:

Le sujet voyage du fils d'un hérisson Constantine et étiqueté de: "Oubliez les pauvres et le mépris de la vérité" Où il voyageait au Maroc a la maison des parents, des martyrs et des opprimés.

Le but du voyage était de rechercher des hommes mystiques et de rechercher leur proximité, leur ordre et leur bénédiction, qu'ils soient vivants ou morts. Le mouvement soufi a connu une large diffusion au VIIIe siècle d'al-Hajri .Cette étude était une tentative de découvrir les manifestations du soufisme dans ce voyage et ses manifestations.

Summary:

The subject journey of the son urchin Constantine and tagged with: "Forget the poor and the contempt of the truth,"where he was traveling to Morocco,at the home of the parents, the martyrs and the downtrodden.

the aim of the trip was to search for mystical men and to seek their closeness, order, and blessing, whether they are living or dead. The Sufi movement witnessed a wide spread during the eighth century of al-Hajri. This study was an attempt to uncover the manifestations of Sufism in this journey and its manifestations.